لغة محمّد

بحث وتوثيق

إبراهيم الجبين

عن جابر بن عبد الله قال:
«خرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن نقرأ القرآن، وفينا الأعرابي والعَجَميّ، فقال: اقرأ فكُلٌّ حَسَن».

أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة:
«أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»

لاشك أنني أغامر في هذا الكتاب، الذي ربما واجه عدداً كبيراً من الأذهان غير القادرة على تحليل الأمور ومحاكمتها كما ينبغي. وبالتأكيد سيكون هناك من يقرأ وهو يرغب باكتشاف المزيد من المعلومات حول لغة النبي التي مازالت مثار جدلٍ وإعجاب وظنون منذ لحظات نطقه الأولى بها وحتى الآن.

دائماً كانت الُلغة هاجسي اللحظي الذي لم أتمكن من الفرار منه بأي وسيلةٍ من وسائل الحياة، ولم تتوقف عن كونها قريناً حيّاً يشاركك تفاصيل يومك في كل ما تسمع أو تقرأ أو تقول.. وحتى حين تحدّث نفسك وحيداً.

ما سيرد في الصفحات التالية، ليس جديداً ولكنه (مطويٌّ) و(مُغْفَلٌ) و(مضطَهدٌ) منّا جميعاً ـ حتى في هذه الدقائق التي أكتب خلالها المقدّمة بالفصحى كما تُسّمى ـ على اختلاف مذاهبنا ومشاربنا وثقافاتنا.

تقليدين أو حداثيين أو ما بعد حداثيين، كلُّنا تجاهلنا مشكلة علاقتنا مع الُلغة التي نستعملها في الكتابة والإبداع والقراءة وتبادل الرسائل وتدوين اليوميات السرّية، إلى أن أصابنا الفصام وأصبحت لدينا «لغتان»... لغة للحياة وأخرى للحياة الافتراضية لغة للنشاط الحيوي وأخرى تتعلّق بكيفيّة تقديم أنفسنا إلى العالم الخارجي.. وهو ما يدفعنا إلى كثير من الاضطرابات في التفكير والتمثيل وعندما اخترت «لغة محمد» موضوعاً للشغل عليه. لم يكن في نيتي سوى البحث في حل واحدة من أكبر الإشكاليات التي تواجهني.. وهي الفارق الهائل بين ما أحسّ به وأنا أقرأ كلمةً ما ـ من القرآن أو الحديث ـ وبين ما تعنيه الكلمة في كتب الصحاح والتفاسير.. هذه العلاقة غير المريحة ـ صراحةً ـ بين شعورك بالمعنى من جهة والمعنى كما وصّفه مَن قبلك من جهة أخرى، تستطيع أن تمزّق تماماً ارتباطك بها ، وبإمكانها أيضاً أن تجعل منك خاضعاً للنّسق ـ بجدارة ـ إذا توقفت عن التفكير والتأمل وأرغمت لسانك على أن يجتاز تلك «المطبات» دون التوقف عندها. ولكن معرفة المزيد والتوغّل أكثر في المسافة بين الكلمة وشارحيها، يحرّر وعيك من سلطة «النَّقل» ووحشيْة «القواعد» الوضعية ويطلق حركة اللسان، فاتحاً المجال للتأمل بعد أن تكون قد تخفَّفت من آليّة الـ «تلقّي».

ولكلّ لغة كما أعتقد فلسفتها الخاصّة التي قادني العمل على بعضها إلى تصوّر أنّ (اللّغة هي الروحانيّة) وأن تهشيم هذا التطابق إنما هو تهشيمٌ للروحانية.

هذا ما أعمل على اكتشافه.. خلال السنوات الماضية والآن.

أمرٌ آخر يتعلّق بقداسة الفصحى التي اشتقها اللغويون والعلماء ـ والمجتمع فيما بعد ـ من قداسة الناطقين بها ـ كلام الله في القرآن وكلام النبي في الحديث ـ هذه القداسة التي تتوقف على البرهنة على أن هذه الفصحى هي حقّاً لغة الله والنبي!! وقد يستند بعض المحتجين إلى فكرة أن إعادة النظر في هذه النقطة

إنما هو خطر يداهم وحدة الصف العربي، في الوقت الذي يختارون فيه لغةً لم يُنطق بها كي توحّد ألسنة العرب!!

والعربية على تعدّد لغاتها تشبه أخواتها الثلاث الآكادية والآرامية والعبرانية، وهي لغات الشرق ـ الساميّة ـ وهي أيضاً لغات الأديان الكبرى التي ظهرت في الشرق وأسس لها رجالٌ مشرقيون. حدثني صديقٌ من الرهبان السريان عن اسمي: إبراهيم، قال، هو في السريانية أبْرُهُمْ، وهو على خمسة أحرف هي:
[أليف ـ بيث ـ رو ـ هِه ـ ميم] وهي تمثل الأركان الخمسة للمسيحية القديمة :

آبو	الآب
برُو	الابن
روحُودقودشو	الروح القدس
هيمُو نوثو	الإيمان
معمُوديثو	المعمودية

في العبرانية أيضاً هناك ارتباط وثيق ما بين الكلمات وحروفها والتوحيد اليهودي القديم وكذلك في عبادات الآشوريين.

وهذه العربية هي كذلك.. أسرار واتصالات غريبة فيما بين المعاني والكلمات والتراكيب والأرقام والأحرف. هناك ربطٌ بنيويٌّ مع التوحيد الإسلامي وكأنما كلٌّ واحد منهما (اللغة ـ الإسلام) مفسّرٌ للآخر... دالٌّ عليه ، بقدر ما يتم اكتشاف المزيد من العلاقات.

الآن أريد التفكير من جديد في عقل «محمد»، ولديّ رغبة كبيرة في التوصل إلى نتائج تغيّر قليلاً من الخلل الذي تراكم عبر مئات السنين ونشأ عنه سوء فهمٍ متواصل لـ«لغة محمد» التي قيل أنها لغة قريش وعُدَّت على ذلك أفصح لغات العرب وكُتب القرآن على سياقها.

ولكن عندما نسمع ما يروى عن عبد الله بن عباس أنه قال:«كُلُّ القرآن أعرفه إلاّ أربعاً: «غِسْلين وحَنَاناً وأوّاه والرَّقيم»[١] وهو القرشي الهاشمي ابن عم الرسول. وقبلَ ذلك تجد بيتاً قديماً لورقة بن نوفل يقول فيه:

أقول إذا صلّيتُ في كلِّ بيعةٍ
حَنَانَيك لا تُطلع عليَّ الأعاديا[٢]

وأيضاً قوله حين مَرَّ على قريش وهم يعذّبون بلال بن رباح:
«والله لَئِنْ قتلتموه لأتّخذنَّهُ حناناً»

هذان قرشيان أحدهما يفهم ويستعمل كلمة «حناناً» والآخر لم يسمع بها!

فوق ذلك فقد كان لابن عباس الكثير من محاولات اكتشاف لغة القرآن وهو لا يخفي عدم معرفته بالكثير منها. فقد قال يوماً (لم أكن أعرف معنى «فاطر السموات والأرض» حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: «أنا فطرتها»[٣] أي أنشأتها وحفرتها.

وكان عمر يتجنّب تفسير أو توضيح ما يسأله عنه الناس فيما يخصُّ كلام النبي أو ما ورد في القرآن وكان يقول «نُهينا عن التكُّلفَ»[٤]

وأبو بكر أيضاً كان يقول: «أي سماءٍ تظلني؟ وأي أرضٍ تقلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع؟ إذا قُلتُ في حرفٍ من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى»[٥]

وقد وردت في أحاديث نبوية كثيرة كلماتٌ لم يفهمها أحدٌ من أصحاب محمد القرشيين فكيف يتفق إذاً أن تكون لغة النبي قرشية خالصة كما استقر في الأذهان؟

١ـ الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ مطبعة مصطفى الحلبي ط٤ ١٣٩٨ هـ.

٢ـ حذف من نسب قريش ـ أبو فيد مؤرخ السدوسي ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ بيروت ـ دار الكتاب الجديد.
٣ ـ يؤكد ابن كثير سند هذه الرواية.. فضائل القرآن ـ محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار.
٤ ـ كنز العمال ـ علاء الدين الهندي ـ تصحيح صفوة السقا ـ حلب ـ دار التراث الإسلامي.
٥ ـ المصدر السابق.

«سيأتي على الناس سنواتٌ خدّاعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون الأمين، وينطق فيها (الرويبضة) قيل وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «الرجل التافه ينطق في أمر العامّة»[٦].

يقول ابن قتيبة «غير جائز أن يكون في القرآن لغةٌ تخالف لغة قريش، لقوله تعالى (وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسان قومه)..»[٧].

ولكن أليس العرب قوم محمد؟! و أليس اللسان أشمل وأعم من الّلغة؟

وقد جاء عن أبي صالح عن ابن عباس: «نزل القرآن على سبع لغات، منها خمسٌ بلغة العجز من هوازن»[٨].

يبدو أن لغة محمد كانت لغة ـ نبي ـ زعيم ـ معلّم .. وبالتالي فإنها بالضرورة ستكون مختلفة عن لغة القرشين التي نعرفها.

كيف إذاً يتم الوقوف على «لغة محمد» بحد ذاتها وترك ما أدخلته الرواية اللفظية من تغيير في نقل مبناها الذي ودون شك سيؤثر على دلالاتها؟!

الدقائق الستون التي ستستغرقها قراءة هذا الكتاب ستحاول استخلاص اللغة الشخصية لمحمد وستجري مقارنة أيضاً مع «لغة قريش» ومع «اللغة الفصحى».

أخيراً أختم هذه المقدمة بكلمات للباحث نبيل فياض الذي يقول في كتابه «حكايا الصعود» الصادر في دمشق ١٩٩٨:

«إن ما يفترض في دراسة التاريخ كعلم هو أن تكون حرّة القيمة. وهذا معناه أن يحاول الباحث التاريخي دائماً تفسير الاعتقادات والسلوكات القديمة بلغة المجتمعات القديمة ومنظومات القيم القديمة، وليس بلغة القناعات الحديثة.

فعلى سبيل المثال...

عليه أن يحاول فهم نبيّ الإسلام محمد كشخص من الماضي عاش في مجتمع مختلف بالكامل عن مجتمعنا، واستجاب لعناصر خاصة بذلك الزمن... لكنه حين يقدّم محمّداً كنموذج أزلي فوق تبدلات الزمن والتاريخ فسوف يصنّف عمله على أنه (تبشير ديني) وليس علم تاريخ... التاريخ هو محاولة لإعادة بناء العوالم المفقودة وتفسير التطورات الماضية، لكنه ليس محاولة لتشريع الحاضر».

«ألفْ لامْ ميمْ... ذلكَ الكتَابْ»

[الألف واحد.. واللام ثلاثون.. والميم أربعون.. فهذه إحدى وسبعون سنة..]

حُيَي بن أخطب (زعيم يهود يثرب)

«... فضربوا فخرج القِدحُ على الإبل، ثم عادوا الثانية، وعبد المطلب قائم يدعو الله، فضربوا فخرج القدح على الإبل، ثم عادوا الثالثة وعبد المطلب قائم يدعو الله، فضربوا فخرج القِدحُ على الإبل، فنُحرت ثم تُركت لا يُصدُّ عنها إنسانٌ ولا يُمنع.. قال ابن هشام[٩]: ويقال: لا يُصدّ عنها إنسانٌ ولا سبع».

قال ابن إسحق: «ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله، فمرَّ به، فيما يزعمون، على امرأةٍ من بني أسد بن عبد العزّى، وهي أخت ورقة بن نوفل[١٠]، وهي عند الكعبة، فقالت لعبدالله حين نظرت إلى

---

٦ - متن ابن ماجه ـ القزويني ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ مطبعة عيسى الحلبي.
٧ - البرهان في علوم القرآن ـ بدر الدين الزركشي ـ مصر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ط١ ١٩٥٨
٨ - الإتقان وتفسير الطبري.

٩ - ابن هشام: هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحْميري المعافري، أبو محمد جمال الدين، البصري النحوي، كان أديباً ومؤرخاً ونسابة، ولد ونشأ بالبصرة.. هو صاحب «سيرة ابن هشام» الشهيرة.

١٠ - كان ورقة واحداً من الأربعة الذين تناجوا في عيدٍ من أعياد قريش قائلين لبعضهم:
تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل.
أما الثلاثة الباقون فهم: عبيد الله بن جحش بن رئاب وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة محمد، وعثمانِ بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلّموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نُطيفُ به لا يسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع!! يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فرحلوا متفرقين في البلاد يبحثون عن دين إبراهيم. دخل ورقة في النصرانية وتعلّم الكتب القديمة من الأحبار. وظلّ عبيد الله بن جحش على التباسه حتى أسلم وهاجر إلى الحبشة وهناك تحوّل إلى النصرانية ومات عليها. أما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنّصر وأصبح ذا حظوة عنده.
أما الأخير زيد بن عمرو بن نفيل فلم يدخل في اليهودية ولا في النصرانية وترك دين قومه، فاعتزل الأصنام والميتة والدم والذبائح التي يذبح عليها وقال: «أعبدُ ربَّ إبراهيم». وكان إذا استقبل الكعبة قال: «لبيّكَ حقّاً حقّاً، تعبُّداً ورقاً، عُذتُ بما عاذ به إبراهيم». ثم خرج يبحث عن دين إبراهيم حتى وصل إلى الموصل والجزيرة، والشام كلّها حتى التقى براهب في أرض البلقاء.. من كبارٍ علماء النصرانية، فسأله عن دين إبراهيم فأجابه قائلاً: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجدٍ من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلَّ زمانُ نبيٍ يخرج

وجهه: لك مثل الإبل التي نُحرتْ عنك وقَعْ عليَّ الآن!! قال: أنا مع أبي، فلا أستطيع خلافه ولا فراقه. فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زُهرة، وهو يومئذٍ سيّد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب... فزعموا أنه دخل عليها حين أُملِكَها فوقع عليها، فحملت برسول الله، ثم خرج من عندها، فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: مالك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنت عرضتِ عليّ بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصّر واتبع الكتب ـ أنه كائنٌ في هذه الأمة نبيّ».

ولد محمد في مكة بعد موت أبيه بأشهر قليلة. أبوه عبد الله بن عبد المطلب (شيبة) بن هاشم (عمرو) بن عبد مناف (المغيرة) بني قصّي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (عامر) بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدّ بن مقوّم بن ناحور بن يَتْرَح بن يَعرُب بن يَشْجُب بن نبايوت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن[١١] وأرضع في بني سعد بن بكر عند امرأة يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب[١٢] ثم عاد إلى مَكّة مع حليمة حيث ضاع منها بين الناس، فأخذت تبحث عنه فجاءت إلى عبد المطلب وأخبرته بضياع حفيده، فقام إلى الكعبة يدعو الله أن يردّه إليه. فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش وأحضراه إلى جده الذي وضعه على عنقه وأخذ يطوف بالبيت ويعوّذه.

* * * * *

ماتت آمنة وهو في السادسة من عمره.

* * * * *

«كان يوضع لعبد المطلب فراشٌ في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ منهم إجلالاً له. فكان محمد يأتي وهو غلامٌ جفرٌ حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إنّ له لشأناً، ثم يجلسه معه عليه، ويمسح ظهره بيده، ويسرُّه ما يراه يصنع»[١٣].

* * * * *

مات عبد المطلب ومحمد لم يبلغ بعد ثماني سنين.

* * * * *

عاش بعدها عند عمّه أبي طالب وهو شقيق والده عبد الله.. أمهما فاطمة بنت عمرو.

* * * * *

قال ابن هشام: «فلما فرغ بحيرى الراهب أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. فقال له بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟! قال: مات وأمّه حبلى به. قال: صدقتَ فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنُّه شراً، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم».

* * * * *

سافر في تجارة لخديجة بنت خويلد إلى الشام وكان معه غلامها مَيْسَرَة، فنزل في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهبٍ من الرهبان، فاقترب الراهب من ميسرة وسأله: من هذا الرجل الذي نزل تحت ظل هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجلٌ من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطُّ إلا نبيٌّ.

من بلادك التي خرجت منها، يُبعث بدين إبراهيم، فالحقْ به فإنه مبعوثٌ الآن، هذا زمانه، فخرج سريعاً صوب مكة، حتى حظي به اللّخميّون فقتلوه.

١١ - هكذا ورد النسب مع امتداده إلى ما بعد إبراهيم وصولاً إلى آدم في جميع كتب السيرة وكذلك عند ابن هشام والطبري.
١٢ - كان لاسترضاع محمد في البادية سببٌ آخر غير الذي كان يدفع بالأمويين إلى إرسال أولادهم إليها، فهم كانوا يطلبون فصاحة اللسان نتيجة سكنهم في بلاد الشام التي تختلط فيها اللغات، فكانوا يحرصون على صقل ألسنة أولادهم في نشأتهم الأولى. أما محمد فقط أرسل إلى بني سعد خشية عليه من (وبأ مكّة) كما ورد جلياً في كلام حليمة ذاتها عندما طلبت أن يبقى عندها فترةً إضافية بعد انقضاء مدة رضاعة. قالت تكلّم آمنة «لو تركتِ بُنيّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وَبَأ مكّة».
١٣ - أولاد عبد المطلب هم: العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب (عبد مناف) والزّبير والحارث وحَجْل والمقوِّم وضرار وأبو لَهَب (عبد العزّى) وصفيّة وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرّة.

* * * * *

قالت عائشة: «أول ما بُدىء به رسول الله من النبوة ـ حين أراد الله كرامته ورحمة العباد بـه ـ الرؤيا الصادقة، فلا يرى رؤيا في نومه إلاّ جاءت كفَلَق الصبح وحببّ الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيءٌ أحبّ إليه من أن يخلو وحده».

* * * * *

قال عبيد بن عُمير بن قتادة الليثي يحدّث عبد الله بن الزبير: «كان رسول الله يجاور في حِراءَ من كل سنةٍ شهراً، وكان ذلك مما تحنَّثُ به قريش في الجاهلية».

* * * * *

«جاءني جبريل وأنا نائم بنمطٍ من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ قلتُ: ما أقرأ، فغتّني[١٤] به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني وقال: اقرأ، قلتُ: ما أقرأ، فغتّني حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟!! فغتّني به حتى ظننتُ أنه الموتُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلتُ: ماذا أقرأ؟!! ما أقول ذلك إلاّ افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي. فقال: (اقرأ، باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علَقٍ، اقرأ وربك الأكرمُ الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عني وهببتُ من نومي فكأنما كُتبتْ في قلبي كتاباً، فخرجتُ حتى إذا كنتُ في وسط الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول: يا محمّد، أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعتُ رأسي إلى السماء لأنظرُ فإذا جبريل في صورة رجلٍ صافٍ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخّر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك... ثم انصرف عني وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي»[١٥].

* * * * *

كان يعيش في مكة قبل أن يبلغ محمد الأربعين أقليّة بيزنطية لم تجاوز الإثني عشر شخصاً هم:

«جَبْر ويَسَار موليا آل الحضرميّ، وبلعام وهوفين، وشمعون ومينا وعدّاس ونسطاس مولى صفوان بن أميّة، ونسطور الرومي ويوحنّا مولى صهيب، ومولى يونانيّ تزوّج من سميّة أم بلال، وبلقوم الروميّ وهو قبطيٌّ استعانت به قريش في بناء الكعبة وصهيب وهو عربيٌّ عاش سابقاً في أرض الروم».

غالبية هؤلاء كانت تدين بالمسيحيّة، الأمر الذي لفت نظر المستشرقين الذين درسوا تاريخ ما قبل محمد والإسلام، وقد أورد بعضاً منهم (أوليري O,leary) [١٦]

وكذلك جواد علي [١٧] الذي أكمل تعدادهم إلى اثني عشر شخصاً.

* * * * *

«لئن كنتِ صَدَقْتِيني يا خديجة.. لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيّ هذه الأمة، فقولي له فليثبتْ» (ورقة بن نوفل)

* * * * *

«وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنّي بريءٌ مما تعملون» (الشعراء ـ ٢١٤)

* * * * *

«ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهاّن فما هو بزمَزمة[١٨] الكاهن ولا سجعه... وما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالُجه ولا وسوسته... وما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رَجزَه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه.. وما هو بساحر، لقد رأينا السُّحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عَقْدهم...» (الوليد بن المغيرة[١٩])

* * * * *

١٤ - الغت والفطّ: الشدّ وحبس النفس الغمس والعصر.

١٥ - البخاري: بدء الوحي ـ مسلم ـ الترمذي ـ ابن حنبل.

١٦ - Arabia Before Muhammad. P.184 (أو ليري) لم يكن قادراً على الاقتناع بإمكانية ظهور الاسلام من بين عرب الصحراء البسطاء ولذلك كان يرجح انتقال التعاليم والمبادىء المسيحية من هؤلاء ـ البيزنطيين ـ إلى محمد قبل بلوغه الأربعين.

١٧ - يجب قراءة جواد علي جيداً لأنه لا يعتمد فقط على النقل المعلوماتي الموثّق وإنما يجري المحاكمات ويقدّم الاجتهادات، لاسيّما حين يتناول فترة معتمة من التاريخ العربي قبل الإسلام.

١٨ - الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

١٩ - وكان من أعيان قريش وهو الذي أشارت إليه الآيات:

«ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهّدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيدَ كلاّ إنه كان لآياتنا عنيداً» من سورة المدثر.

«إنّا قد بلَغَنا أنك إنّما يعلّمك رجلٌ باليمامة يقال له الرحمن» (قريش لمحمد[٢٠].)

* * * * *

«مشى حُيّي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله فقالوا له: يا محمد، ألم يُذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك (ألم... ذلك الكتاب)، فقال: بلَى، قالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله. فقال: نَعم، فقالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدّة مُلكه، وما أكلُ أمته غيرك!! فقال حُيّي بن أخطب وأقبل على من معه فقال لهم: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين إنما مدة ملكه وأكل أمّته إحدى وسبعون سنة، ثم أقبل على رسول الله فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟! قال: (ألمص) قال: والله هذه أثقل وأطول: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا غيره يا محمد. قال: نعم (ألر)، قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان، هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: نعم (ألمر) قالوا: هذه أثقل وأطول: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان. فهذه إحدى وسبعون ومائتان سنة. ثم قال: لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم قاموا عنه». (ابن هشام ـ السيرة)

قريش.. أهلُ محمّد

لم يرد في نسب محمد اسم قريش.. غير أن النضر بن كنانة بن خزيمة هو قريش ومن كان ولده فهو قرشي. ويقال أيضاً أن فهر هو قريش.

وكان أولاده وأحفاده يسكنون الحجاز الذي يمتد من صنعاء إلى أطراف الشام[٢١] وأحياناً يضمون فلسطين واليمامة وتبوك إلى الحجاز فيصبح رقعة واسعة تضم عدداً كبيراً من القبائل كلّها بدويّة إلاّ أهل مكّة ويثرب (قريش والأنصار) وهناك هذيل وكنانة. ومما لا شك فيه أن محمداً إن تكلم فسيتكلم بلغة قومه في الغالب (لغة قريش) والمتتبّع لأبحاث اللّغويين القديمة الذين درسوا لغة قريش من بين لغات الحجاز أظهروا اهتماماً كبيراً بها دون سواها بسبب انتساب محمد إليها. فكانت نتائج أبحاثهم تهمل جهينة ـ الحجازية أيضاً ـ ومزينة، ولكنهم درسوا لغة قريش أيضاً بسبب سكنهم مع أهلها في مكّة. فكان تأصيل النحو أساساً على يد علماء من أهل مكة (يحيى بن معمّر من بني ليث وهم من كنانة [٢٢] ثم عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وهو أوّل من «بعج النحّو ومدّ القياس والعلل» وهو مولى لآل الحضرمي حلفاء بني عبد شمس. وهو مكيّ. وعيسى بن عمر مولى خالد بن الوليد[٢٣] وأبو عمرو بن العلاء الذي أقام بمكّة وقرأ القرآن على شيخها ابن كثير ومجاهد ولكثرة ما تأثر بلغة قريش فضّله أحمد بن حنبل في القراءة واعتبرها قراءة الفصحاء. جاء بعد هؤلاء الخليل الذي قرأ على الشافعي شعر هذيل والشنفرى.

ولكن يجب أن لا ننسى أيضاً أن مما ساهم في تسليط اهتمام اللغويين على لغة قريش كان قصدهم مكّة لمجاورة البيت وطلب العلوم الشرعية وهناك كانت تصقل لغتهم وتظهر ميولهم[٢٤] إلى لغة أهل مكة من القرشيين.

أما الأنصار في يثرب فإن جميع المصادر تشير إلى أن لغتهم طابقت لغة قريش إلا قليلاً.. قال القاسم بن معن: «لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلاّ في (التابوت)، فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء».

ولكن من المعروف أن أهل يثرب لم يكونوا مجرّد أنصار.. بل كان يعيش فيها مع الأوس والخزرج عدد كبير من اليهود «بنو قريظة» «بنو النضير» «بنو قينقاع » وسنناقش بعضاً من لغة أهل يثرب في الفصول التالية حين ترد مناسبتها.

---

٢٠ ـ ابن هشام ـ وكان رد القرآن على ذلك (كذلك أرسلناك في أمةٍ قد خلت من قبلها أممٌ ليتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربّي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متَابِ) الرّعد ـ ٣٠.

٢١ ـ حسب وصف ياقوت في معجم البلدان ـ الجزء الثاني ـ دار صادر ـ بيروت

٢٢ ـ طبقات فحول الشعراء ـ محمد بن سلام الجمحي ـ تحقيق محمود شاكر ـ القاهرة ـ المدني.

٢٣ ـ المصدر ذاته.

٢٤ ـ المزهر في علوم اللغة وأنوعها ـ محمد جاد المولى وآخرون ـ بيروت ـ المكتبة العصرية ١٩٨٦.

يقول محمد كما روى الترمذي: «إني بُعثتُ إلى أُمَّة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قطُّ..»[٢٥].

من هنا يمكننا أن نبدأ بنسج صورةٍ ما للغة تتشكل بالتدريج وكلّما أوردنا شاهداً من كلامه ستزداد الصورة وضوحاً..

فهو كان في قرارة نفسه يعلم أنه ليس لكافة العرب أن تفهم وتستوعب تعاليمه لعلّة الاختلاف أصلاً وأيضاً بسبب طبيعة التركيب اللغوي الذي يختاره في أحاديثه أو حتى ذاك الذي يرد في القرآن.

ولذلك نعتقد أنه إنما اختار فتح لغته لتخرج عن نطاق خصوصيتها وتتسع لتشمل لغات العرب آنذاك سواءً في كتبه التي أرسلها إلى زعماء الجزيرة واليمن أو عندما كان يستقبل الوفود، ولكنه على الأغلب حافظ على نطقه ذاته في معظم كلامه.

يقول ابن دريد «ليس في لغته ـ عليه السلام ـ الهمز»[٢٦].

وقال ابن الأثير: «لأنّ الهمز ليس في لغة قريش»[٢٧].

ولنا أن نتخيل كيف كان محمد يتكلم ويقرأ القرآن دون أن يستعمل الهمز...

[تصبح كلمات من نوع توضأت وجئت وقرأت تصبح هكذا.. توضيت وجيت وقريت]. ويصبح لفظ الآية [ويذبوَّانَا لبراهيم مكان البيت ينْ لا تُشرْكْ بي شيَّاً وطهّر بيتي للطايفين والقايمين والركّع السجود] الحج ٢٦.

أو [من كان عدوّاً لجبريل فنَّهُ نزَّلهُ على قلبك بذْن الله مصدّقاً لما بين يديه وهدىً وبشرى للمُومنين] البقرة ـ ٩٧.

يمكن للقارىء ملاحظة ظهور كلمات ملفتة بمجرّد تغيير حرف واحد (الهمز) من ذلك مثلاً (يديه) التي ستحيل إلى (إيديه) العامية المعاصرة.

الآن سنتناول الحروف حرفاً حرفاً كما نطق بها النبي وقبله قريش.

* * * * *

الألف و الهمزة

كانت الألف القرشية ألفاً مفخّمة تقترب في لفظها من الواو وعلى أساس ذلك قرأ ورش (الصلاة) و(مصلّى) و(الطلاق) و(بظلاّمٍ)[٢٨] ويقال إن هذا اللفظ هو سبب كتابة الكلمات (الصلواة والزكواة والحيواة) على الواو.

ويمكن لي الآن أن أتذكر لفظ بعض بطون شمرّ في الجزيرة العربية الذين يلفظون الألف تماماً كما كانت قريش تلفظها حتى هذا اليوم.

فتخرج الألف مائلة كما يلفظها اللبنانيون ولكنها قريبة من الواو.

وقد وصفت في المحيط على أنها «ألف تستدير في نطقها الشفتان قليلاً مع اتساع الفم نتيجة لحركة الفك الأسفل، ويرتفع مؤخر اللسان قليلاً، فيصير الفم في مجموعه حجرة رنين صالحة لإنتاج القيمة الصوتية التي نسّميها التضخيم على لغة أهل الحجاز»[٢٩].

* * * * *

قلت أن النبي لم يكن في لغته الهمزة جرياً على عادة قريش. ولكنهم ألفوها من لفظهم تسهيلاً نظراً لصعوبة انسيابها في الكلام.

وقد اتفقت المصادر جميعها على أن الهمز لم يكن موجوداً عند محمد ولا عند القرشيين [٣٠] وقد اشتركت معهم قبائل أخرى حجازية هي هذيل وأهل يثرب وكنانة وسعد بن بكر وبإلغائها قرأ ابن عباس ونافع والزهري ومجاهد وابن كثير.

فكانوا يقرأون (الصابئون) (الصابون) و(المؤمنون) (المومنون) و(يطأون) (يطون).

---

٢٥ ـ صحيح الترمذي ـ ورواه الإمام أحمد والطبري.
٢٦ ـ جمهرة اللغة ـ ابن دريد الأزدي ـ بغداد ـ مكتبة المثنى.
٢٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأكثر ـ ابن الأثير ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناجي ـ بيروت ـ المكتبة العلمية.
٢٨ـ لغة قريش ـ مختار سيدي الغوث ـ الرياض.

٢٩ ـ اللغة العربية معناها ومبغاها ـ تمام حسن ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣.
٣٠ ـ تاج العروس والنهاية وشرح المفصّل وتأويل مشكلة القرآن والحروف للمزني وإيضاح الوقف والابتداء وشرح الشافية وغيرها.

يقول الأخفش الأوسط: «إن العرب تحوّل من الهمزة موضع اللام ياءً فيقولون: قَرَيْتُ واخطيتُ وتوضّيتُ»[٣١].

وأسند أبو عبيد عن ابن عباس أنه قال: ما الخاطئون؟ إنما هي الخاطون. ما الصابئون؟ إنما هي الصابون»[٣٢].

وقد وردت (رفوتُ) بدلاً عن (رَفَأْتُ) في شعر أبي خراش الهذلي:

(رَفَوْني) وقالوا: يا خُويلدُ، لا تُرَعْ

فقلتُ وأنكرتُ الوجوه: هُمُ هُمُ[٣٣]

وكان الحسن البصري يقرأ (أنبهمْ) بدلاً من (أنبئْهُمْ) وقد عرف تأثره بهذيل[٣٤].

ثم أن وجود أسماء وكلمات رويت عن القرشيين والهمزة فيها واردة لا يعني على الإطلاق أنهم استعملوها مثل كلمة (عباءة) التي تلفظها قريش (عباية) و(جبرئيل) (وميكائيل) اللتين تلفظان عند أهل مكة على النحو التالي: (جبريل) و(ميكال)

يقول ورقة بن نوفل:

وجِبريلُ يَاتيهِ وَمِيكَال معهما

من الله وَحْيٌ يشرح الصّدرَ مُنْزَلُ[٣٥]

هناك أيضاً (أَرْجَأ) التي تُلفظ (أَرْجَا) وبها قرأ نافع وحفص وأبو جعفر والكسائي وحمزة وخلف: (أَرْجِهِ وأخاه) ـ الأعراف ـ ١١١

وقوله تعالى: (وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله) ـ التوبة ـ ١٠٦.

* * * * *

أظن أن مسألة استعمال الرسول للهمزة محسومة تماماً فهو كان يقرأ (تغرب في عينٍ حمئة) هكذا (تغرُبُ في عينٍ حَمِيَة) ـ الكهف ـ ٨٦ [٣٦]

وكذلك قرأ ورش وأبو عمرو ويعقوب (لأهب لكِ غلاماً زكيّاً)

هكذا (ليهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً) مريم ـ ١٩.

ولم تكن عائشة سوى مكيّة وقد ورد عنها قولها: «كان الناس يتجنَّوْنَ على عثمان... فننظرُ في ذلك، فنجِدُهُ بَرِّياً تقيّاً وَفيّاً)[٣٧].

وقرأوا في سورة اللهب (وُمَرَّيتُه حمّالة الحَطَب)

حتى محمد نفسه كان ينهى عن استعمال الهمز فيقول «لستُ بنبيء الله، ولكنّي نبيُّ الله»[٣٨].

أما مشكلة الألف التي تأتي في أول الفعل فهي أيضاً كان لها حلولها عند قريش فقد كانوا يقولون (قَدَ فْلَحَ) بدلاً من (قَدْ أفلحَ) ولذلك فقد كان الكسائي يعتبر أن (ترك الهمز في المحاريب من الاستاذيّة)[٣٩].

أخيراً فقد روى حماد بن زيد قال:

«رأيتُ رجلاً يستعدي على رجلٍ بالمدينة فقلتُ له ما تريد منه؟

قال: إنه يتهدّد القرآن، قال: فإذا المطلوب رجلٌ إذا قرأ يهمز»[٤٠].

فضلاً عن أن محمداً كان يقول لمعاذ: «اقرأ يا معاذُ ولا تهْمِزْ»[٤١].

* * * * *

يجدر بالذكر أن من اخترع رسم الهمز هو الخليل بن أحمد وقد خصّه برأس العين.

* * * * *

٣١ ــ البحر ١٤٩/١.
٣٢ ـ إبراز المعاني من حرز الأماني ـ أبو شامة المقدسي ـ مطبعة مصطفى البالي الحلبي ـ ١٣٤٩هـ
٣٣ ـ شرح اشعار الهذليين ـ أبو سعيد السكري ـ تحقيق عبد الشعار خراج ـ مكتبة خياط.
٣٤ ـ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ـ الرياض ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثة .
٣٥ ـ البحر أيضاً
٣٦ ـ قال ابن عباس: اقرأني أبي كما أقراه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ (تغْرب في عينٍ حمية).
٣٧ ـ جمهرة خطب العرب ـ أحمد زكي صفوت ـ بيروت ـ المكتبة العلمية.
٣٨ ـ المستدرك ـ ٢٣١/٢ ـ أبو عبد الله الحاكم ـ حلب ـ المطبوعات الإسلامية
٣٩ ـ السابق.
٤٠ ـ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ـ مكي بن أبي طالب ـ عمّان
٤١ ـ تاريخ بغداد ٣٣٩/٢ ـ الخطيب البغدادي ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي.

القاف

يؤكد ابن خلدون في مقدّمته أن قريشاً كانت لا تنطق القاف كما نعرفها في زمننا هذا. بل كانت قافهم بين الكاف والقاف. وهي لُغة أهل البيت ومحمد من قبلهم.
فقد رأى المضربين في عصره يلفظونها (كـَ) وكانوا يعتبرون نطقها هكذا هو الفيصل بين العربي والعجمي. ولم يكونوا يقبلون نطق القاف التي نعرفها. وهم لم يخترعوها «وإنما هي متوارثةٌ متعاقبة عن أسلافهم من مضر الأولين»[٤٢].
وهذه القاف تشبه تماماً قاف البادية والأرياف في البلدان العربية هذه الأيام. وقد كان اللغويون ينسبوها إلى «بني تميم» من نجد فيقول شاعرهم:
ولا أكَولُ لكَدرِ الكَوْم كَدْ نَضَجَتْ
ولا أكَولُ لبابِ الدَّارِ مكَفولُ [٤٣]
وعلى الأرجح أن جميع العرب كانوا يستعملون هذه القاف، فقد أشار الأصمعي إلى أنه وجد رجلاً خارجاً من الصحراء كأنه جذعٌ محترق. قال فقلتُ له: أتقرأ شيئاً من كتاب الله؟! قال: لا قلت: فأعلّمك؟! قال: ما شِيتَ، قلتُ: اقرأ (قل يا أيها الكافرون) قال: (كُلْ يا أيها الكافرون) قلتُ: (قل يا أيها الكافرون) كما أقول. قال: «ما أجد لساني ينطلق بذلك»[٤٤].

الجيم

ما يزال أهل الحجاز يلفظون الجيم مخففة قريبةً من جيم بلاد الشام، مخالفين بذلك معظم قبائل الجزيرة العربية ـ باستثناء اليمن ـ الذين يحققون الجيم ويميتون رنينها.
ومع أن اتصال الحجاز من شماله بالشام ومن جنوبه باليمن قد يؤثر على استعمال القرشيين للجيم بحيث تصبح جيماً مصريّة ـ كما تسمى الآن ـ لا سيّما وأنها تلفظ هكذا بالعبرية أيضاً. ومازالت غالبية قبائل اليمن تلفظها هكذا.
وقد روي أن الحارث بن هانيء بن أبي شمر بن جَبَلة الكندي استلهم يوم ساباط فنادى: «يا حُكَرُ.. يا حُكْرُ ـ يريد يا حُجْر بن عديّ الأدبر...»[٤٥].
وهو ما أثبته الجاحظ في البيان والتبيين «ولما اجتمعت الخطباء عند معاوية في شأن يزيد، وفيهم الأحنف، قام رجلٌ من حِمْيَر، فقال: إنا لا نطيق أفواه (الكَمالِ)، يريد: الجِمَال، عليهم المقال وعلينا الفَعال»[٤٦].
وباعتبار أن الإبدال ـ تبديل الحروف في اللفظ ـ كان من لغة قريش فإن من المرجح أن الجيم كانت تبدل (ياءً) في بعض الأحيان وهو ما بقي إلى الآن في لغة جنوب العراق (البصرة) وبعض الخليج العربي. فيقولون (مينون) بدل (مجنون) و(يرَّ) بدل (جَرَّ).

الياء والألف المقصورة

من الصعب الجزم بأن اختلافاً ما قد طرأ على استعمال الياء منذ زمن محمد حتى الآن، سوى ما روي عن عبد الله بن مسعود حين سرد حادثة قتله لأبي جهل: «فلمّا وضعتُ رجلي على مذمَّر أبي جهل قال: «أعْلُ عَنِّجْ» أي أعْلُ عنّي[٤٧].

٤٢ - المقدمة ٥٥٧ ـ عبد الرحمن بن خلدون ـ مصر ـ المكتبة التجارية الكبرى.
٤٣ - الصاحبي ٥٤ ـ والجمهرة ـ بيروت ـ مؤسسة أ. بدران.
٤٤ - العقد الفريد ـ ٤٧٦/٣ ـ أحمد أمين وآخرون ـ القاهرة.
٤٥ - رسالة الغفران ٢٠١ ـ أبو العلاء المعري ـ دار المعارف ـ مصر.
٤٦ - البيان والتبيين ٣٨٩/١ الجاحظ ـ القاهرة ـ مكتبة الخانجي
٤٧ - النهاية ـ ٢٩٤/٣ في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير ـ بيروت.

أما الألف المقصورة فقد شملتها إمالة اللفظ التي شملت القرشية. وكان محمّد يكثر من إمالتها «سُمِعَ رسول الله يقرأ (يا يحيى) فقيل له: يا رسول الله، تميل وليس من لغة قريش؟ فقال: هي لغة الأخوال من سعد»[٤٨].
وهكذا قرأت كلماتٌ من نوع «الضحى» و«سجى» بالإمالة.
رغم أن ابن عباس لفظ الألف المقصورة لفظاً غريباً بعض الشيء حيث قال: «لابأس بقَتْلِه الأفْعَوْ، ولا بأس بِقَتْلِهِ الحِدَوُّ...»[٤٩]
يقصد «الأفعىَ) و(الحُدَيّا) أي الحدأة.

الأســـالـــيـــب

سأتوقف الآن عن سرد الحروف، كي أدخل في شرح بعض الأساليب اللغوية التي اختارها محمّدٌ للغته ـ أو أنها لغته ولغة قومه القرشيين ـ فقد وجدتُ أنه كان يتكلم بما عدَّه اللغويون «من قديم اللُّغة» بينما هو برأيي ما يجعل اللُّغة أقرب إلى لغات العرب الآخرين ويزيد من احتمالات استعمالها وفهمها ـ دون تعصُّبٍ للغةٍ واحدة بينها ـ فكان من أساليبه:

الإبدال:
وهو وضع حرف موضع الآخر في كلمتين من لغتين تقتربان من ذات المعنى[٥٠].
وقد استبدلتْ الألف بالعين في كلمة (اسْتَادِيَّهُ) بدلاً من (استعديَّه) [والله لأستاديّه عليكمْ] في حديث الهجرة إلى الحبشة[٥١].
وهو معروف في لغة قريش إذا أخبر العنبري أن رجلاً من فصحاء ربيعة أخبره أنه سمع كثيراً من أهل مكة يقولون: يا أَبْدَ الله يريدون: يا عبد الله»[٥٢].
وقد استعمل النبي مفردة تنتشر الآن في عموم البوادي والأرياف العربية وهي (أنْطى) أي (أعطى) فاستبدل العين بالنون.
كما ورد في كتابه إلى تميم الداري وقد كان كاتب النبي وقتها هو الإمام علي بن أبي طالب: «هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته»[٥٣] أو عندما قال: «اليد العليا المُنْطِيَة واليد السُفلى المُنْطَاةُ»[٥٤].
ويعتبر علماء اللغة هذا الأسلوب قرشياً أيضاً ويسمّونه «استنطاء» وقال عنه التبريزي «لغة العرب العاربة من أولى قريش»[٥٥].
أما في كلمة «كُشِطَتْ» فقد استبدل القاف بالكاف وهو ما يحيلنا إلى كيفية لفظ القاف التي أوردناها قبل عدة صفحات.
وهي في «وإذا السماء كُشطَتْ»[٥٦].
الغريب أن كلمة «القيوم» المذكورة في القرآن لم تكن من لسان قريش أو ربّما هي لفظت هكذا من قبل الرواة وفيها استبدل الواو ياءً لأن عمر بن الخطّاب لم يكن يقرأها سوى «القيّام»[٥٧] وهذا الاستبدال معروف في قريش وفي كلام النبي ـ قالت عائشة تثني على عمر «فَنَفَح البلاد وَدّيخها»[٥٨] أي دوَّخها».

---

٤٨ ـ الاتقان ـ ١/١٣٠.
٤٩ ـ اللسان ـ (فعَا)
٥٠ ـ المزهر ١/٤٦٠ ـ في علوم اللغة وأنوعها ـ المكتبة العصرية ـ بيروت.
٥١ ـ النهاية ١/٣٣ ـ واللسان (أدو).
٥٢ ـ الإبدال والمعاقبة ٣٥ ـ الزجاجي ـ دمشق ـ المجمع العلمي ـ ١٩٦٢.
٥٣ ـ مجموعة الوثائق السياسية، ١٠٢ ـ دار الإرشاد ـ بيروت.
٥٤ ـ البحر ـ ٨/٥١٩.
٥٥ ـ البحر أيضاً
٥٦ ـ التكوير ـ ١١.
٥٧ ـ معاني القرآن ١/١٩٠ ـ الفرّاء ـ الأخفش.
٥٨ ـ جمهرة خطب العرب ١/٢٠٩

القلب:

وهو تغيير مواقع الحروف في الكلمة مع بقاء الحروف ذاتها وإطلاق الكلمة على ذاتها المعنى.
هذا الأسلوب ملاحظ في أيامنا هذه ويعتبره اللغويون من لهجات العوام الركيكة رغم أن النبّي استعمله، فيقول البعض في الشمال السوري دَحَّقَ بدلاً من حَدَّق وما يشبه ذلك ما جاء في الحديث: «كان النبي يعجبه الطّبيّخ»[٥٩] أي «البطّيخ».
وكذلك ما عُرف عن العرب في لفظ كلمة «مَعِيقْ» التي قُلبت إلى «عميق» وأصبحت هي الفصحى «يأتينَ من كلِّ فجٍ عميقٍ»[٦٠].
وكانت تميم لا تقول إلاّ «معيق».
أيضاً «صاعقة» في «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق» أصلها في نجد «صاقعة» وجمعها «صواقع»[٦١] رغم أن الحسن بن علي قرأها «من الصواقع»[٦٢].
ويرد في الحديث النبوي أيضاً (يَئَسَ) و(آيَسَ) [٦٣] والأخيرة هي الرواية الأدق[٦٤] وهي الدارجة الآن.
ومنها كانت قراءة ابن خالويه للآية (فلما استيأسوا منه)[٦٥] التي أثبتها (استايسوا) وهي بدقة ما استعملها عمر بن أبي ربيعة.

أنا من ذاك آيسٌ غَيْرَ أنَّي أُعلَّلُ [٦٦]

الإدغام:

لا أكثر وضوحاً من «يا أيها المزَّمِّل»[٦٧]و«يا أيها المدَّثِّر»[٦٨] التي أصلها «متدثر» و«متزمّل» وقد أدغم الحرفان وألغيت التاء ووضعت الشَدَّة على الحرف الثاني، وكان محمد يستعيض عن الأفعال التي على وزن (افتعل) بأبدالٍ تظهر فيها الواو والياء. مثل «اتَّفَقَ» التي تصبح «ايتفق» «ياتفق» «ايتفاقاً» وهو «موتفقٌ»[٦٩].
فعن حكيم بن حزام عن النبي قال: «ايتدعا في قومكما، يُكَّف عنكما ما تكرهان»[٧٠] وأيضاً ما قاله محمد لعمر «إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضتَ لهم العطاء خشيتُ أن ياتكلوا عليك »[٧١].

كَسْر حروف المضارعة:

بقي في الفصحى الحالية من هذا الأسلوب فعلٌ واحد هو «إخالُ» الذي يُكسر فيه الحرف الأول. وما تبقى فهو اعتمادُ فتح الحرف الأول في المضارع «تَعْلَمُ» «تأكلُ» و«يَقْرأ» وغيرها.
ولكن أبا حيّان دونّها «ولا تِقْرَبَا هذه الشجرة»[٧٢] بكسر التاء وهو الدارج والمنتشر إلى الآن، وهو ما كانت الأعراب تلفظه، يقول الأخفش إن كل من ورد عليهم من الأعراب لم يقل إلاّ (تِعلم) بكسر التاء[٧٣].
ويُسّمي اللغويون هذه القراءة شذوذات، رغم ورودها في قراءة يحيى بن وثاب «ثم إضطرُّه»[٧٤] وكذلك في «يومَ تِبيضُّ وجوهٌ وتِسْوَدُّ وجوه»[٧٥].

الحذف والإثبات:

٥٩ - العين ٢٢٥/٣ - والمصباح (بطخ).
٦٠ - الحج - ٢٧.
٦١ - البقرة - ١٩.
٦٢- اللسان - (صقع).
٦٣ -إتحاف - ٣٨٠/١ - البنّاء - بيروت - عالم الكتب.
٦٤ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ١٣٩/١ - ٣٤٣/٧.
٦٥ – يوسف – ٨٠.
٦٦ - ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٣٣ - مطبعة السعادة - ١٩٩١.
٦٧ - المزمّل - ١.
٦٨ - المدثر - ١.
٦٩ – اعراب القرآن ١ - ٨٠ - النحّاس - تحقيق زهير زاهد - علام الكتب - مصر.
٧٠ - جمهرة نسب قريش - ٣٦٣/١ الزبير بن بكّار - القاهرة - دار العروبة.
٧١ - جمهرة نسب قريش - ٣٧٣/١.
٧٢ - البقرة - ٣٥.
٧٣ - اللسان - (وفى).
٧٤ - البقرة - ١٢٦
٧٥ - آل عمران - ١٠٦ والبحر ٣٨٤/١ و٢٢/٣.

يمكن هنا أن يحذف حرفٌ من الكلمة أو يُضاف إليها حرفٌ من خارجها وأعتقد أن هذا الأسلوب هو جزء من رغبة النبي في التحرّر أثناء حركة اللسان بحيث لا تصبح القاعدة هي الأصل بل المهم هو إيصال المعنى محمّلاً على مركبة من الحروف التي تشير إليه ولو مجرّد إشارة.
ومثال ذلك «وانظر إلى إلهكَ الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً»[٧٦].
و«ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً»[٧٧].
ويمكن أن تحذف النون من «من» إذا جاء بعدها ساكن كما في قول ابن قيس الرقيات:
أَسْدَيْتُهَا في النَّوال صالحةٍ إلاّ عطاءً مِ الواحدِ الصَّمَدِ[٧٨]
والآية «اللائي يئسن من المحيض»[٧٩] تُقرأ هكذا «اللايْ يئسن من المحيض» على قراءة أبي عمرو والعنبري[٨٠].
وكان محمد يحذف الياء من «ربّي» و«عمّي» و«أبتي» فيقول «يا عمِّ قل لا إله إلاّ الله»[٨١].

التذكير والتأنيث:
كان محمد في ذلك يميل إلى لغة الحجاز التي تفضّل تأنيث ما تذكره القبائل النجدية واليمنية. فقد كان يقول: «من باع نخلاً قد أُبِّرتْ فثمنها للبائع، إلاّ أن يشترط المُبتاع[٨٢]» وهو هنا قام بتأنيث «النخل» وهو مفردة تصنّف على المذكّر. وهو ذاته في وقت آخر قال: «مَنْ غَرَسَ هذا النخل؟»[٨٣] وقال أيضاً ليزيد بن أبي سفيان: «ولا تحرقوا نخلاً ولا تعقروه»[٨٤].
ولكن هل نفهم من هذا أنه لم يكن يدقق في الفارق ما بين المذكر والمؤنث من الأشياء.. بحيث أنه يذكّر مرةً ويؤنث مرة؟! ربّما كان فعلاً يقصد ترك التشدد في المؤنث المجازي بحيث يصبح الشيء مجرّد لشيء لا تتوقف تسميته على ما ورد من السَلَف لاسيما وأنه كرَّر تأنيث المذكر وتذكير المؤنث في مواضع غير هذا الموضع.. «النحل» «الذهب» و«البقر» وغيرها.
أما الشجر فقد ورد في سياق جملة قرآنية وأعيد عليه ضميران مذكر ومؤنث! «لآكلون من شجر من زقومٍ فمالئون ـ منها ـ البطون فشاربون ـ عليه ـ من الحميم»[٨٥].
وأنّث «الطريق» أيضاً في قوله «فأعطوا الطريق حَقَّها»[٨٦] ولكنها وردت في القرآن مذكرة:
«فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً»[٨٧].

منو ؟!:
إذا وردت في جملة المتكلم نكرة في الإخبار عن حدث.. يطرح عليه السؤال بإضافة «و» إلى «من» الاستفهامية، إذا كانت نكرةً مفردة. وإن كانت مثنى أو جمعاً ألحقت بها علاقة التثنية أو الجمع والتأنيث..
وهي لغةٌ حجازية قرشية صافية.. فمثلاً إذا قيل:
رأيتُ رجلاً.. يأتي السؤال: مَنُو؟!
أو رأيتُ رجلين.. ياتي السؤال: مَنَان؟
وللجمع.. مَنُون؟![٨٨]
ألا تستعمل مفردة «منو؟» في هذه الأيام؟!
يقول الشاعر:
أتوا ناري فقلتُ مَنُونَ أَنتُمْ فقالوا: الجنُّ، قلتُ عِموا ظَلاَمَا [٨٩]
* * * * *

٧٦ - طه ـ ٩٧.
٧٧ - الكهف ٧٨.
٧٨ - ديوان ابن قيس الرقيات ٧٦ ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ دار صادر ـ بيروت.
٧٩ - الطلاق ـ ٤.
٨٠ - معاني القرآن للأخفش ٥٢/١.
٨١ - صحيح مسلم ٤٥/١ ـ بيروت دار إحياء التراث العربي
٨٢ - الموطأ ٤٢٥ ـ صحيح مسلم ١١٧٢/١.
٨٣ - صحيح مسلم ـ ١١٨٨/٣.
٨٤ - جمهرة خطب العرب ـ ١٩٧/١.
٨٥ - الواقعة ـ ٥٢ ـ ٥٤.
٨٦ - البخاري ١٨٣/٣ ـ بيروت ـ دار الجيل.
٨٧ - طه ـ ٧٧.
٨٨ - العين ـ ٣٩٠/٨ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.
٨٩ - الكتاب ـ ٤١١/٢ ـ سيبويه ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ بيروت ـ عالم الكتب.

حروف وأفعال

نَعَمْ:
روي أن محمداً كان يكسرها فتخرج «نَعِمْ»، كما قال أيضاً عثمان النهدي عن أن عمر بن الخطاب نهى عن قول «نَعَمْ» فقال: «لا تقولو: نَعَمْ، وقولوا: نَعِمْ»، وأيضاً ذكر ذلك بعضٌ من آل الزبير: «ما كنتُ أسمع أشياخ قريش يقولون إلاّ (نَعِمْ)، بكسر العين»[٩٠].
والأشمل من ذلك هو أن كنانة بأكملها والحجاز كانوا يلفظونها: (نَحِمْ)[٩١] وتروى القراءة للمصحف بالكسر عن عمر وعليّ وابن الزبير وابن مسعود والأعفش ويحيى بن وثاب[٩٢].

لام الأمر:
«فَلْيَكْتُبْ ولْيُمْلِل الذي عليه الحقُّ»[٩٣].
جاءت لام الأمر مسكنه بعد الفاء والواو.. وهي كذلك أيضاً بعد «ثمّ».. «ثمَّ لْيَقْطَعْ»[٩٤] أو «ثمَّ لْيَقْضُوا تفثهم»[٩٥].
وقد كسرها بعض القراء مثل ورش وابن عامر وأبي عمرو ورويس فخالفوا بذلك لغة النبي وإسكانها هو الأفصح وهو ما يرد عند المبرّد الذي يعتبر لفظها بالكسر «لحناً»[٩٦].

أحزَنَ:
لم تكن لغة قريش على هذا النحو بل كانوا يقولون «حَزَن»[٩٧].
- حَزَنَهُ الأمر - فكانوا يفضلون استعمال الثلاثي والابتعاد عن الهمز.

أجزأ:
استعملها محمد هكذا «ولا تَجْزِي عن أحدٍ بَعْدَك»[٩٨].
وفي القرآن «واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً»[٩٩].

أحْرَمَ وأحَلَّ:
وردت في الحديث وفي الصحاح «حَلَّ» و«حَرَمَ»[١٠٠].
«وإذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا»[١٠١].

أزْرِرْ:
أهلُ مكة يقولون «زُرَّ عليك قميصك»[١٠٢].
ومن عداهم يقولون «أزرّ عليك قميصك».

أمْرَجَ:

٩٠ - النهاية - ١٨٤/٥.
٩١ - شرح المفصل ١٢٥/٨/ - موفق الدين يعيش - بيروت - عالم الكتب.
٩٢ - شرح المفصل ٢٥/٨/ أيضاً والبحر ٣٠٠/٤ - وتفسير القرطبي ٢٠٩/٧.
٩٣ - البقرة - ٢٨٢.
٩٤ - الحج - ١٥.
٩٥ - الحج - ٢٩.
٩٦ - النشر - ٣٢٦/٢ واتحاف ٢٧٢/٢.
٩٧ - المقتضب ٣٣/٢ - المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - بيروت - عالم الكتب.
٩٨ - المصباح (جزى) - الفيومي - مكتبة لبنان ١٩٨٧.
٩٩ - البقرة - ٢٣.
١٠٠ - البيان ٤٢٣/٣ الطوسي - النجف - المطبعة العلمية - ١٩٥٧.
١٠١ - المائدة - ٢.
١٠٢ - فعلت وأفعلت - ١٧٣ - السجستاني - جامعة البصرة - ١٩٧٩.

وهي من لغة نجد ـ ولكنها في القرآن: «مَرَج البحرين».[١٠٣] وتفسيرها عن اليزيدي: خلاهما ثم جعلهما لا يلتبس ذا بذا، قال: وهو كلامٌ لا يقوله إلاّ أهلُ تهامة[١٠٤].

صعَّرَ :
الواردة في القرآن... صحيحها ـ القرشي ـ هو (صَاعَرَ)[١٠٥].. فتصبح الآية: «ولا تُصَاعِرْ خدَّك للناس»[١٠٦].

«إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب»
عبد الله بن عباس بن عبد المطلب[١٠٧]

* * * * *

«إن هذا الشعر الجاهلي... لا يمثل اللُّغة الجاهليّة»
طه حسين[١٠٨]

* * * * *

[ترد مفردة «القُرء» في القرآن.. وهي تعني عند العراقيين «الحَيْض»[١٠٩] بينما تعني عند عائشة وابن عمر والذهبي والشافعي «الطُّهر»[١١٠] وترد في القرآن الكريم والحديث دون أن يُتاح للقارئ معرفة أيٍّ من المعنيين يقصد النبي].

* * * * *

[يستعمل أهل مكة كلمة «الأزْيَبْ» لوصف الريح التي تجري بين الصَّبا والجنوب.. ولكن بقية العرب تقول «النكباء» وقال عنها محمد: «اسمها عند الله الأزْيَبْ وعندكم الجَنُوب»[١١١]].

* * * * *

«الدُّقَّة» وهي خلطةٌ من التوابل أو هي الملح المدقوق وحده.. وما تزال تُستعمل في مصر والحجاز وبلاد الشام.. وقد استعملها قريش أيام النبي[١١٢].

* * * * *

[أرسل محمّد إلى ملوك اليمن بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام.. وكان يُملي على علي بن أبي طالب ـ كاتبه ـ وقد قال عليّ إنه لم يفهم تلك الكُتبْ]
[قال أبو هريرة: إنْ سمعتُ بالسِّكِّين إلاّ يومئذٍ، ما كنّا نقول إلاّ المُدْيَة] يشير بذلك إلى أنه ما سمع بالسكين إلا من النبّي.

كلمات غير عربية في لغة محمد

الإجَّار:
وهو السطح عن أهل الحجاز والشَّام[١١٣] وهي آراميّة وتعني: السقف[١١٤]
يقول محمد: «من بال على (إجَّار) ليس حوله ما يردَّ قدميه فقد برئت منه الذّمَة»[١١٥]

---

١٠٣ - الرحمن ـ ١٩.
١٠٤ - تهذيب اللغة ٧٢/١١ ـ الأزهري ـ مصر ـ الدار المصرية ١٩٦٤.
١٠٥ - لأن الكلمة «تَصَعَّر» ليست من لغة محمد بل هو «على قاعدة التشديد» كان يستبدل الشدة بالألف.. انظر ـ البحر ٨٢/٧ ـ وإتحاف ٣٦٣/١/
١٠٦ - لقمان ـ ١٨.
١٠٧ - اللغات ـ لابن سلام ـ ٢٣٥ ـ جامعة الكويت ١٩٨٥.
١٠٨ - في الشعر الجاهلي ـ طه حسين ـ مجلة القاهرة ـ العدد ١٥٩ ـ فبراير ١٩٩٦.
١٠٩ - اللسان (قرأ) ـ ابن منظور ـ بيروت ـ دار صادر.
١١٠ - تفسير القرطبي ـ دار القلم ـ ط٣ ـ ١٩٦٦.
١١١ - النهاية ٣٢٤/٢ ـ واللسان (زيب).
١١٢ - اللسان ـ (دقق).
١١٣ - غريب الحديث، للحربي ـ ٨٤٠/٢ جامعة أم القرى ـ ١٩٨٥.
١١٤ - الصحاح ـ (أجر)

الأرَفُ:

أي المعالم والحدود عند محمد.. يقول: «أيُّ مالٍ قسّم و(أُرِّفَ) عليه فلا شُفعة فيه» [١١٦] وهي على ذمة رفائيل نخلة.. كلمة آرامية.. لأن (آرفو) بالآرامية تعني: مساح أو قيّاس حدود الأرض[١١٧].

القَمْح:

وأصلها شاميّ[١١٨].

الميزاب:

وتعني (مزراب) وأصلها استناداً للأصمعي فارسيَّة وتركيبها الأساسي (مَازْ آب): أي الذي يبول الماء[١١٩].

هَيْتَ لَكْ:

أي تعال إليَّ.. أو هَلُمَّ.. وهي التي وردت على لسان زوجة العزيز في سورة يوسف (قالت هَيْتَ لَكَ)[١٢٠].

وهي عبرانيّة كما يبدو من تكوينها الحروفي.. وقد قال بذلك أبو زيد وعكرمة.. وأصلها (هِيَتَلَخْ) أي: تعالْ[١٢١] وقال عنها ابن الجوزي.. كلمة قبطيّة[١٢٢].

* * * * *

إذاً.. أين ذهبتْ لُغة النبي؟!!

[س ـ هل يمكن لحضرتكم الآن تعريف اللغة الجاهلية الفصحى وعلى لغة حِمْيَر وبيان الفرق بين لغة حِمْيَر ولغة عدنان ومدى هذا الفرق وذكر بعض أمثلة تساعدنا على فهم ذلك؟[١٢٣].

جـ ـ قلتُ إن اللُّغة الجاهلية في رأيي ورأي القدماء المستشرقين لغتان متباينتان على الأقل، أولهما لغة حِمْيَر وهذه اللغة قد دُرستْ ووضعت لها قواعد النحو والصرف والمعاجم، ولم يكن شيء من هذا معروف قبل الاكتشافات الحديثة، وهي كما قلت مخالفة للغة العربية الفصحى التي سألتم عنها مخالفة جوهريّة في اللفظ والنحو وقواعد الصرف، وهما إلى اللغة الحبشية القديمة أقرب منهما إلى اللغة العربية الفصحى، وليس من شك في أن الصلة بينهما وبين لغة القرآن والشعر كالصلة بين السريانية وبين هذه اللغة القرآنية، فأما إيراد النصوص والأمثلة فيحتاج إلى ذاكرة لم يهبها الله لي، ولابد من الرجوع إلى الكتب المدونة في هذه اللغة.

س ـ هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا لنا هذه المراجع أو تقدّموها لنا؟

جـ ـ أنا لا أقدّم شيئاً!

س ـ هل يمكن لحضرتكم أن تبيّنوا إلى أي وقت كانت موجودة اللغة الحميرية ومبدأ وجودها إن أمكن؟

جـ ـ مبدأ وجودها ليس من السهل تحديده ولكن لاشك في أنها كانت معروفة تكتب قبل القرن الأول للمسيح وظلت تُتكلم إلى ما بعد الإسلام، ولكن ظهور الإسلام وسيادة اللغة القرشية قد محيا (محوا) هذه اللغة شيئاً فشيئاً كما محيا (محوا) غيرها من اللغات المختلفة في البلاد العربية وغير العربية وأقرّا مكانها لغة القرآن.

---

١١٥ ـ غرائب اللغة ـ ١٧٢ رفائيل نخلة ـ بيروت ـ المكتبة الكاثوليكية.
١١٦ ـ النهاية ـ ٢٦/١.
١١٧ ـ اللسان ـ (أرف).
١١٨ ـ اللسان ـ (قمح).
١١٩ ـ تهذيب اللغة ١٣ ، ٢٦٧ (ومعجم الألفاظ الفارسية المعربة ـ ١٤٩)
١٢٠ ـ يوسف ـ ٢٣.
١٢١ ـ البحر ـ ٢٩٣/٥.
١٢٢ ـ فنون الأفنان ـ ١٩٣ ـ الجوزي ـ بغداد ـ المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٨٨.
١٢٣ ـ للقارئ أن يلاحظ أسلوب المحقق في التعاطي مع طه حسين وكيفية اختياره للكلمات المهذبة إضافة إلى محاولته لفهم أفكار كتاب طه حسين موضوع المشكلة (في الشعر الجاهلي).

س ـ هل يمكن لحضرتكم أيضاً أن تذكروا لنا مبدأ اللغة العدنانية ولو بوجه التقريب؟
جـ ـ ليس من السهل معرفة مبدأ اللغة العدنانية [١٢٤] وكل ما يمكن أن يقال بطريقة عملية هو أن لدينا نقوشاً قليلة جداً يرجع عهدها إلى القرن الرابع للميلاد، وهذه النقوش قريبة من اللغة العدنانية ولكن المستشرقين يرون أنها لهجة قبطية وإذن فقد يكون من احتياط العلم أن نرى أقدم نصٍّ عربي يمكن الاعتماد عليه من الوجهة العلمية إلى الآن إنما هو القرآن حتى نستكشف نقوشاً أظهر وأكثر مما لدينا.
س ـ هل تعتقدون حضرتكم أن اللغة سواءً كانت اللغة الحميرية أو اللغة العدنانية كانت باقية على حالها من وقت نشأتها أو حصل فيها تغيير بسبب تمادي الزمن والاختلاط؟
جـ ـ ما أظن أن لغة من اللغات تستطيع أن تبقى قروناً دون أن تتطور ويحصل فيها التغيير الكثير].
١٩ أكتوبر ـ تشرين أول ١٩٢٦.
من التحقيق الذي أجرته النيابة العامة مع طه حسين[١٢٥].

ما يُلفت في كتاب طه حسين الإشكالي، هو وعيه للتطور الذي طرأ على اللغة عبر القرون الماضية من جهة ومن جهة ثانية تحليله لكيفية جريان هذا التطور سواءً بالفعل القصدي ـ مناقشته لدور الشعوبية والمناهضين لها في وضع الروايات غير الحقيقية سواءً بهدف الإساءة إلى التاريخ العربي عن طريق الطعن فيه وكذلك عن طريق إبراز دور الفرس منذ ما قبل الإسلام ومروراً بالعصور الأولى، أو بهدف الدفاع عن العروبة كقومية اجتهدت وبنت حضارة وحملت الإسلام إلى العالم ـ قلنا سواء بالفعل القصدي أو بفعل التغيّر العلمي ونتيجة للاحتكاك فيما بين اللغات العربية ذاتها أو بينها وبين الشعوب الأخرى.
يقول في متن كتابه وفي الفصل المعنون (الشعر الجاهلي واللهجات): [إن القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغةً غير لغتها، وتقيدت في الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت في لغتها الخاصة، أي أن الإسلام قد فرض على العرب جميعاً لغة عامة واحدة هي لغة قريش][١٢٦].
تتضمن السطور الماضية الأفكار التالية: أولاً أن القبائل إنما اتخذت لغةً أخرى (لأدبها) ويحدد طه حسين أن اللغة البديلة استعملت فقط للأدب وليس للحياة والتعايش والشؤون اليومية والمنزلية وهو ما يتقاطع مع فكرتي حول الفصام الذي تعيشه الأمة العربية ـ أو من يستخدم العربية عموماً ـ ما بين اللغة التي تفكّر بها وتتعامل بها وتلك التي تبدع وتبحث وتعمل بها وهي (الفصحى) كما تسمّى.
ثانياً: يقول إن الإسلام قد فرض على العرب جميعاً لغة عامة واحدة، وهو ما لا أعتقد أنه حدث لأن الإسلام ـ إسلام النبي ـ عمل على تأكيد الهويّة اللغوية لكلّ داخلٍ جديد فيه وذلك واضح من خلال قبول النبي بلغات العرب الأخرى واستعماله لها أثناء محاورة الوفود أو في إرساله الكتب إلى زعماء الجزيرة أو في مسألة القراءات[١٢٧]. أما الواقع فهو ما سأفصّله بعد قليل حول الدور الذي قام به عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان في فرض اللغة الواحدة.
ثالثاً وأخيراً: يقول طه حسين إن تلك اللغة الواحدة هي (لغة قريش) وهو ما سنبحثه أيضاً حول ما إذا كانت هذه اللغة التي فرضت هي (لغة محمد) أم (لغة الخلفاء) أم (ما بعد الخلفاء)!!.
* * * * *

لما كان يوم الاثنين الذي قُبضَ فيه محمد، خرج إلى الناس أثناء صلاة الفجر، فرفع الستر وفتح الباب وخرج ووقف عند باب عائشة، فكادت صلاة المسلمين تفسد عندما رأوا النبي يقف أمامهم، وفرحوا

١٢٤ ـ بالطبع سيشتمل اللغة العدنانية، لغة قريش على اعتبار أنهم من العرب العاربة وبالتالي فسينسحب حكم طه حسين على اللغة القرشية أيضاً لا على لغة الشعر الجاهلي وحدها. وهو ما دفعني لإيراد هذا الحوار مع طه حسين الذي كان رائداً حقيقياً في مجال التفكير في اللغة.
وقد كان ما توصّل إليه عميد الأدب العربي يعدّ نتائج مذهلة، ومفاجئة ـ للجمهور العربي بعلمائه ومثقفيه، نتائج قوضت فكرة الرواية الأكيدة التي لا يأتيها الباطل من أي مكان والتي أوصلت إلينا أخبار الجاهليين وقصصهم ومعلقاتهم..
١٢٥ ـ من نص للسيد «محمد نور» رئيس نيابة مصر. مجلة القاهرة ـ فبراير ١٩٩٦ العدد ١٥٩.
١٢٦ ـ نسخة مجلة القاهرة (في الشعر الجاهلي) ص٣٢ ـ فبراير ١٩٩٦ ـ ٥٩.
١٢٧ ـكما ورد في حديث جابر: «خرج علينا رسول الله ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي، فقال: اقرأ فكلٌّ حَسَن»، أو في الحوار القصير الذي جرى مع أحد اليمانيين حين قدم على الرسول وقال له:
أمْ برِمْ صيامُ فِمْ سَفَرْ؟
فكان جواب النبي: ما مَيْسَ مِنَمْ بِرِمْ صِيَامُ فِمْ سَفَرْ
وكان بعدها قد شرح لِأصحابه عن أخيهم اليمني الذي أبدل اللام ميماً في كلامه وسؤاله وهو: ألبر الصيامُ في السَّفر؟!
وجواب النبي: لا ليسِ من البر الصيام في السفر.
هذه الحادثة يرويها الأزهريون.
وكذلك ما روي عن علي بن أبي طالب حول عدم فهمه للكتب التي كتبها إلى ملوك اليمن.

لظنهم أنه استرد عافيته، فأخذوا ينظرون إليه، وكان قد قال قبلها «مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس» فكان الإمام أبا بكر، فأشار النبي للمسلمين أن يثبتوا في صفوفهم وتبسّم سروراً لما رأى من هيئتهم، وكان يضع عصابةً على رأسه، فانتظر حتى أنهى صاحبه الصلاة وجلس عن يمينه وتكلّم بصوت مرتفع حتى خرج صوته من باب المسجد، وقال:

«أيها الناس، سُعِّرت النارُ وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإني والله ما تمسَّكون عليَّ بشيء، إنّي لم أُحِلَّ إلاّ ما أحلَّ القرآن ولم أحرّم إلاّ ما حرّم القرآن»[١٢٨].

* * * * *

وخرج عليُّ بن أبي طالب في ذلك اليوم من عند محمد، فسأله الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً ـ أي أنه شُفي من مرضه وبرأ ـ فأخذ العباس يد علي وقال مغاضباً: يا علي، أنت والله عبدُ العصا، بعد ثلاث، أحلف بالله لقد عرفتُ الموتَ في وجه رسول الله كما كنتُ أعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إليه فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس، فقال له علي: إني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحدٌ بعد، أي إذا منعنا عنه النبي ـ ويقصد الخلافة، فلن يمنحها أحد إلى بني هاشم بعده[١٢٩].

* * * * *

قالت عائشة: رجع إليَّ رسول الله في ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع في حجري فدخل عليَّ رجلٌ من آل أبي بكر وفي يده سواكٌ أخضر، فنظر رسول الله إلى ما في يده نظراً عرفتُ أنه يريده، فقلتُ: يا رسول الله أتحبُّ أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم. فأخذته فمضغته حتى ليَّنته، ثم أعطيته إياه، قالت: فاستنَّ به كأشدّ ما رأيته يستنُّ بسواك قطّ، ثم وضعه، ووجدتُ رسول الله يَثْقُلُ في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شَخَصَ وهو يقول: «بل الرفيقُ الأعلى من الجنّة»[١٣٠] فقلتُ: خُيّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق.. وقُبض رسول الله[١٣١].

* * * * *

وقالت: مات رسول الله بين سَحْري[١٣٢] ونحْري[١٣٣] وفي دولتي[١٣٤].

لم أظلم فيه أحداً، فمن سَفَهي وحداثة سنّي أن رسول الله قُبضَ وهو في حجري، ثم وضعتُ رأسه على وسادة وقمتُ ألْتَدِمُ[١٣٥] مع النساء وأضربُ وجهي[١٣٦].

[إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد تُوُفّي، وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران قد غاب عن قومه أربعين ليلةً ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجَعَنَّ رسول الله كما رجع موسى فليقطعَنَّ أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات] (عمر بن الخطاب) ـ قبل ظهر اليوم الذي مات فيه محمد[١٣٧].

* * * * *

[وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسل أفإنْ ماتَ أو قُتلَ انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يَضُرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين]. (آل عمران ـ ١٤٤.)

وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن الناس كأنهم لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يوم قبض النبي، فأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم[١٣٨].

---

١٢٨ - صحيح مسلم ـ ابن حنبل ـ الترمذي.
١٢٩ - ابن هشام ـ السيرة.
١٣٠ - البخاري.
١٣١ - ابن هشام ـ السيرة .
١٣٢ - السَّحْر ـ من الرئة إلى الحلقوم.
١٣٣ - النَّحْر ـ أعلى الصدر إلى الرقبة.
١٣٤ - دولتي ـ أي في نوبتي التي كانت لي.
١٣٥ - ألتدم ـ أضرب صدري.
١٣٦ - عن ابن هشام عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عبّاد.
١٣٧ - ابن هشام ـ السيرة.
١٣٨ - المصدر السابق.

[رُفع فراش رسول الله الذي توقي عليه، فحُفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله يُصلّون عليه أرسالاً، دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يَؤُم الناس على رسول الله أَحَدْ][١٣٩].

* * * * *

قالت عائشة:

[ما علمنا بدفن رسول الله حتى سمعنا صَوتَ المسَاحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء][١٤٠].

* * * * *

مع دفن محمد دُفن طورٌ غير عادي من الزمن بدأه ذلك الغلام الذي كان يطارد الماعز في بادية بني سعد بن بكر قبل ستين عاماً من هذه اللحظة.

ولكن السؤال الآن.. هل دفنت مع هذا الرجل لغته التي نطق بها؟!

هل استبدلت هي الأخرى كما استبدلت كثيرٌ من سننه وتعاليمه؟!

الحقيقة أنني أجد صعوبة في التمييز ما بين لغة محمد ولغة القرآن، وإذ أتبّع مسار لغة قريش ولغة محمد يستوقفني بين الوقت والآخر مسار لغة الصحف التي لم تكن بعد قد دونت وجُمعت إلى بعضهما البعض كنصٍ واحد، ولم يحدث شيءٌ من هذا إلاّ فيما بعد في عهد عمر وعثمان.

ولذلك فإن نظرة هادئة إلى بعض مواقف عمر تدلنا على هذا الاندماج النهائي بين لغة محمد ولغة المصحف.. فقد روي عن عمر أنه غضب على عبد الله بن مسعود إذا أقرأ الناس القرآن بلغته، فكتب إليه الكتاب التالي:

[سلامٌ عليك، أما بعد، فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآناً عربياً مبيناً، وأنزله بلغة هذا الحيّ من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلُغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل][١٤١].

من الواضح أن لهجة هذه الرسالة لم تكن وديّة.. إذ بدأها بـ (سلامٌ عليك) التي هي ليست تحية المسلمين ولا حتى تحيتهم لأهل الكتاب (السلام على من اتبع الهدى)، وكأن عمر رغب في أن يستفتح على ابن مسعود بتحية الحرب. الملاحظة الثانية أن عمر قررّ ودون أي مجال لرأي آخر أن الله أنزل القرآن (بلُغة هذا الحيّ من قريش) وهو ما لم يرد أبداً لا في كتاب الله ولا في الحديث النبوي. وإلاّ لقال القرآن (إنا أنزلناه قرآناً قرشياً)[١٤٢].

ثم إن هذه الرسالة موجهة إلى أول من جهر بالقرآن في مكّة من المسلمين بعد محمد، في الوقت الذي كانت فيه قريش تحاصر الإسلام وتضيّق على النبي وحتى عمر نفسه كان وقتها وثنياً ومن أغلظ الناس عداوةً للإسلام والمسلمين. فقد روى ابن اسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله بمكة عبد الله بن مسعود، فقد اجتمع يوماً أصحاب الرسول فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لهابه قط، فمن رجلٌ يسمعونه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا، قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

فغدا ابن مسعود حتى أتي مقام إبراهيم في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته.. (الرحمن علّم القرآن) ثم استقبلها يقرأها، وتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أنهروا في وجهه، فقالوا له:

---

١٣٩ - المصدر ذاته.

١٤٠ -عن عبد الله بن أبي بكر عن امرأته فاطمة بنت عمارة عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة - في سيرة ابن هشام.

١٤١ - فتح الباري - ١٠ /٣٨٣ - ابن حجر العسقلاني - مكتبة مصطفى الحلبي.

١٤٢ - ولو أن للقرابة أية صلة بالمنطق القرآني لأصبح القرآن هاشمياً لا قرشياً فقط .

هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغاديّهم بمثلها غداً، قالوا: لا.. حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون[١٤٣].
وعمر الذي أنكر على ابن مسعود قراءته بلغة هذيل ـ وهي حجازية أيضاً ـ هو من يقول «من لم ينفعه ظنُّه لم تنفعه عينه»[١٤٤] فمن المؤكد أنه كان في ذهنه ما يكفّر فيه حين نهى عن قراءة القرآن بغير «لُغة هذا الحيّ من قريش» ولكن السؤال الآن .. هل لغة قريش هي لغة محمد ذاتها؟! أعتقد أنها لم تكن كذلك لأنّ محمّداً لم يقصر لغته على لغة قومه وإلاّ كيف يستقيم أنهم لم يعرفوا كثيراً من كلمات القرآن[١٤٥] وكان عمر يقول إذا سُئل عن معنى من معاني القرآن «نُهينا عن التكلّف »[١٤٦] وفوق ذلك كان ابن عباس ـ حبر الأمّة والمفسر الأول ـ لا يعرف معاني كثير من الكلمات وهو قرشي هاشمي، يقول: لم أكن أعرف معنى ربنا افتَح بيننا وبين قومنا بالحق حتى سَمِعْتُ بنت ذي يزن الحِمْيَريّ تقول: تعال أُفاتِحكَ، أي أقاضيكَ[١٤٧].
المهم الآن أنّ عمر بدأ ينهىَ الناس ـ وبشدة ـ عن قراءة القرآن بغير لغة قريش. وكان ممن نهاهم وأنكر عليهم من كبار الصحابة أبو موسى الأشعري. فقد منعه عمر من أن يقرئ الناس بلغته وقال عنه «إن أبا موسى لم يكن من أهل البهش» أي أهل مكة[١٤٨].
إلاّ أن لعمر عصبّيته الخاصة كما نعلم ـ وهو الذي اختار الخليفة بعد محمد وأول من بايعه ـ ولم يكن يتردد في اجتهاد يعتقد بصلاحه بعد أن آلت إليه الخلافة فأخذ ينشئ الدولة ـ الأمّة، واجتهادات عمر كثيرة ومنها ما تدخّل حتى في تغيير حُكمٌ قرآني (الفيء وغنيمة الحرب وقسمتها).
بعد عمر جاء عثمان الذي كان أول من أمر بجمع المصحف وكتابته وتفريقه في البلدان حتى يكون كتاباً واحداً ونسخاً وعندما قرّر البدء في مشروع جمع المصحف أحضر خمسةً وعشرين قرشياً وخمسين أنصارياً وأمرهم بكتابته[١٤٩]، وقال لهم إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نَزَلَ بلسانهم[١٥٠] وما صَحَّ عنه فيما بعد هو أنه كان قد كلّف بكتابة المصحف أربعة: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث[١٥١].
والثلاثة قرشيون إلاّ زيد بن ثابت فهو من الأنصار.
المدهش أن القرآن كُتب في محاولةٍ أولى ـ أيام حروب الردة ـ في عهد أبي بكر بإشارة من عمر بن الخطاب، وكان المكلّف بجمعه وكتابته زيد بن ثابت وحده!! الذي أوصى عثمان بعدم الأخذ برأيه في كتابة المصحف للمرة الثانية![١٥٢].
بعد ذلك عادت المشاكل تلاحق ابن مسعود، فقد عَزَلَه عثمان عن كتابة القرآن عمداً، ولما غضب ردَّ عليه عثمان قائلاً: من يعذرني من ابن مسعود، غَضِبَ إذ لم أُولِّه نَسْخَ القرآن، فهلاّ غضِبَ على أبي بكر وعمر وهما عزلاه عن ذلك ووليا زيداً فاتّبعتُ أمرهما[١٥٣].
ويبدو أن تغييراً ما قد طرأ حين أرغم النصَّ القرآني على أن لا يكون محمّدياً بل قرشياً. وربما كان الحديث النبوي أيضاً قد مورست عليه العملية ذاتها ـ من المؤكد أنّ هذا ما حصل ـ ولكن المشكلة ليست لفظية فقط. بل إن الأمر يتعدّى ذلك حين تختلف الدلالات بتغيير الألفاظ والحروف والحركات. وبالتالي يختلف البناء المعنوي للنص من أوّله إلى آخره.

---

١٤٣ ـ ابن هشام ـ السيرة.
١٤٤ ـ عبقرية عمر ـ العقاد
١٤٥ ــ أبو بكر وعمر لم يعرف معنى كلمة «الأبّ» في «وفاكهة وأبّاً متاعاً لكم ولأنعامك» عبس ـ ٣٢. وكذلك ابن عباس وأبو بكر وعمر أمام الكلمات: غسلين ـ حناناً ـ أوّاه ـ الرّقيم ـ فاطر ـ افتَح ـ تَخَوُّف ـ حَرَجاً ـ الزُّقوم.
١٤٦ ـ المستدرك ٥١٤/٢.
١٤٧ ـ المستدرك ٥١٤/٢.
١٤٨ ـ الإتقان ـ ١٥٩/١.
١٤٩ ـ غريب الحديث ـ ابن قتيبة ٦٢٠/١ ـ وزارة الأوقاف ـ بغداد.
١٥٠ ـ المفصّل ٦٥٦/٨.
١٥١ ـ صحيح البخاري ٢١٩/٤.
١٥٢ ـ فتح الباري ٣٨٣/١٠.
١٥٣ ـ تاريخ القرآن ـ عبد الصبور شاهين ـ ١٠٤ ـ دار القلم ١٩٦٦.

ما أجده الآن أن القرآن لم يعد يقرأ على لغة محمد، وفي الوقت ذاته أجد الفصحى التي يُقرأ بها القرآن ونستعملها في يومياتنا مختلفة عن لغة قريش.
إذاً لنعيد تركيب الفكرة من جديد... محمد.. قرشيٌّ.. اختار للسانه لغة خاصة ذات اتساع أكبر ودلالات أوسع ومرفودة أيضاً من لغات عديدة.. ترك القرآن الذي كان هو أول من ينطق به (أي أنه على لغته) وترك الأحاديث التي تكلّم بها هو .. قام من ورثه من القرشيين بإعادة نسخ ما ترك محمد (القرآن ـ الحديث) إلى لغة قريش وأبعدوهما عن لغة محمد. ولغة قريش التي استخدموها طرأ عليها التغيير بالزمن والاحتكاك بالأمم الأخرى.
أما لغة قريش التي تتقاطع مع لغة محمد فهي كما قالوا أقرب شيء إلى لهجة سعيد بن العاص التي لم تكن لهجة عامّة قريش، ولو كانت كذلك لما كان هناك أي معنى لتمييز سعيد بن العاص الذي قالوا عنه إن لهجته وفصاحته تشبه إلى حدٍ ما فصاحة محمد ولذلك أقيم عليها القرآن[١٥٤].
والاحتجاج الذي يقدّمه ابن خلدون عند فقهاء آل البيت الذين اعتبروا أن القاف المضرية (كَ) هي الأصح وهي لغة النبي وأن من لم يقرأ بها المُسْتَكَيم في فاتحة الكتاب بطلتْ صلاته[١٥٥]. لهو دليلٌ على أن ثمة لغة غير لغة قريش طواها الزمن أو قام ببعثرتها بين قبائل العرب، لأنها أساساً خيارٌ شخصي اختاره محمد من كافة قبائل العرب وقوّم لسانه على لغاتهم وتقف لغته بدلالات ألفاظهم.
وإذا كان تقديس الفصحى ـ الآن ـ يأتي من كونها (لُغة المصحف) والحديث. فإنه من الأولى أن يتم تقديس لغة محمد ذاته لا لغة رواته لأنه هو الأدرى باللغة التي نزل بها الوحي، وهو أدرى الناس بما ينبغي له أن يلفظ.
قال له عمر بن الخطاب يوماً: مالَكَ أفصَحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ أي كيف تكون أفصحنا وأنت لم تغادر مكة كثيراً؟ فأجابه محمد: حُقَّ لي فإنما أُنزل القرآن عليَّ بلسان عربيٍّ مبين[١٥٦].
ويجدر الآن التعريج على حديث « أنا أفصح العرب بَيْدَ أنّي من قريش وأرضعت في بني سعد»[١٥٧] الذي تتناقله العامة والخاصة ويعلق على جدران المدارس والجامعات إنما هو حديثٌ «ضعيف» وضعه رجلٌ من بني سعد كي يرفع منزلة قبيلته في الفصاحة[١٥٨]، وحتى لو كان هذا الحديث صحيحاً فإن معناه ليس كما فهم الناس، لأن (بَيْدَ) التي استعملها محمد تعني (غَيْرَ) أو (عَلَى) ويصبح معنى الحديث.
(أنا أفصح العرب غير أني من قريش وأني نشأت في بني سعد)[١٥٩] وهذا السياق لا يقود إلى اعتداد النبي بلغته ومعنى كهذا لا ينسجم مع عقلية محمد التي آمنت ـ من خلال جميع تفاصيل سلوكها ـ بتراكم المعرفة والمعلومات والثقافات بما فيها اللّغة دون أن تكون للغةٍ ما سيادة على أخرى.
ولأنه كان يعرف تماماً ما الذي يمكن أن يحدث لو سيطرت لغةٌ دون سواها ـ خاصة في جزيرة العرب تلك الأيام ـ ألم يكن هو القائل (إن من البيان لسحراً)؟!
حسناً.. ولكن ما هي اللغُّة؟! إنها نسقُ الإشارات والرموز وأداة الاتصال والتخاطب Communication بين الكائنات.
وهي الوسيلة الوحيدة لإدراك معنى فكرةٍ ما ـ ووجهاها هما النطق والكتابة. ودونها يتعذّر النشاط المعرفي للناس، وهي ترتبط بالتفكير ارتباطاً وثيقاً. وهي ترمز إلى الأشياء المنعكسة فيها، فرموزها تبدو وكأنها تحلُّ محلَّ الأشياء الفعلية.
وبالتالي يتمكن الإنسان من التعامل ليس مع الأشياء مباشرة ولكن مع رموزها في لغته. واللغة المكتوبة هي الأداة الرئيسية للذاكرة الاجتماعية والثقافية.
وهي عند محمد كانت وسيلة الاتصال عبر البث أو الاستقبال علاوةً على دورها الخفي ـ ولكن الرئيسي ـ وهو التأثير النفسي والروحي الذي يدخل في روع المستمع أو القارئ عندما يقرأ آية من القرآن ـ أو الحديث.

---

١٥٤ ـ نكت الانتصار ٣٦٣ ـ أبو بكر الباقلاني ـ الإسكندرية ـ منشأ المعارف ١٩٧.
١٥٥ ـ لغة قريش ـ مختار سيدي الغوث.
١٥٦ ـ ابن خلدون ـ المقدّمة.
١٥٧ ـ المفصّل ـ ٦٥٧/٨.
١٥٨ ـ مدّ القاموس.
١٥٩ ـ المصدر السابق.

ولذلك كان عليه أن يختار لغة «لا نهائية» قادرة في كل لحظة على أن تستمر في عملها الإغوائي ـ دون أن تكون الكلمة الأخيرة بالضرورة تعني الإغواء الشيطاني - يؤكد تشومسكي ميزة «الإبداعية Creativity» أو «اللانهائية Openending» في اللغات الإنسانية. وقبله دوسوسير الذي اعتبر الميزة الإبداعية للغة عنصراً هاماً في مسار اللغة وتطورها وقدرتها على أن تكون حيّة على الدوام.
إن الاختزال الذي تعرضت له لغة محمد الـ «مفتوحة»، إنما قام بقطع الطريق على أشكال الحوار المعرفي ـ وحتى السطحي ـ التي كانت ستنشأ فيما بين معتنقي الإسلام، وكانت فكرة محمد: أن الله واحد في كل مكان وأن البشر لا فرق بين عربيّهم وعجميّهم... إلاّ بالتقوى، وهو التساوي التام الذي يضمن المحافظة على هوية الأفراد وفي نفس الوقت لا يمنعهم من الانخراط في «جماعة». واستعمال كل واحدٍ منهم للغته أمام الآخرين يمنحه المزيد من الثقة بالنفس ويطرح أمام المستمعين المزيد من الثقافة اللغويّة، دون أن تنقض لغةٌ أحدهم على لغة الآخرين.

وكأن محمداً كان يدرك بذكائه ما تحدّث عنه تشومسكي في أعماله، حول الدور الذي يلعبه الحدس Intuition أو المقدرة على الحكم اللغوي عند المتكلم، يقول تشومسكي عن ذلك «إن الجملة التي تولدها القواعد النحوية يجب أن تحظى بالقبول لدى المتكلم، لأنه يجب أن يمتلك القدرة على التمييز بين مجموعة من الجمل المترادفة في المعنى أو الجمل ذات اللبس اللغوي Ambiguous أي الجمل التي تحمل أكثر من تفسير، وقبل النطق بالجملة يجب أن يكون المتكلم قد اختار، وعندما تمنح المتكلّم حريّة أن يفكّر بلغته فسوف يكون حدسه دقيقاً.[١٦٠] وبالتالي سيكون ذهنه مسترخياً بعيداً عن التوتر الذي يحدث أثناء استعمالك للغةٍ ثانية ـ غير لغتك الأم ـ وما حدث أنْ تحول العرب إلى جماعة بشرية هائلة كلُّها تتكلّف الكلام والكتابة، وتفكر ـ بشكل غير بديهي ـ قبل أن تستخدم الكلمات.
وبالتالي لم تعد اللغة أداة اتصال. بل تحوّلت إلى مشقّة وجهد آخر غير جهد خلق معنى يريده المتكلم، وعلى ذكر ما يريد المتكلم فقد توصل أحد الباحثين في المغرب وهو «عبد الفتاح كيليطو» إلى معادلة ذكية ودقيقة تصف ما كان يحدث ـ ولكن الرجل لم يقترب من قصة لغة قريش أو غيرها وكان كلامه عن السرد والحكاية ـ
المعادلة هي : عندما يحصل الكلام فإن ثلاثة معانٍ تحضر على الفور:
١ـ معنى يريده المتكلم من كلامه.
٢ـ معنى يفهمه المستمع من الكلام.
٣ـ معنى تريده اللغة وهو يختلف عن قصد المتكلم وكذلك عن فهم المستمع[١٦١].
وإذا تمكّنتُ من البناء على هذه المعادلة فسيكون أمامي ما يلي:
العرب يبثّون لغةً لا تحمل المعنى الذي يريدونه ويتلقون عبرها معانٍ غير التي تعنيها.
إذاً يمكننا أن نتخيل الآن شكل الحوار الذي ينشأ بين عربيين لكلٍّ منهما لغة مختلفة ـ أصلاً ـ ويتجاذبان أطراف الحديث باللغة الفصحى، كما تُسمَّى، بالتأكيد سيكون عالم المعاني صاخباً بضجيج له أول وليس له آخر.
هذا الحديث ليس ببعيد عن فكرةٍ أوردها «هربرت ماركوز» في حديثه عن «عالم الإنشاء المغلق» حين لاحظ ما تفعله الاختصارات بالعقل، الاختصارات بالأحرف الأبجدية الأولى، مثل:
Ddr, Urss, Nato, Seato, Un, Afl, Cid, Aeg
يقول: «إن غالبية هذه الاختصارات عقلانية تماماً، وتجد تبريرها في طول المصطلح المختصر، ولكن هذا لا يمنع من أن نغامر في اعتبار بعضها «حيلة من حيل العقل»، إذ أن الاختصار يتيح تجنّب المشاكل الشائكة واللا مرغوب فيها، ومثال ذلك Nato، فهذا الاختصار لا يوحي بأن «منظمة معاهدة شمال الأطلسي» تعني حرفياً معاهدة بين أمم الأطلسي الشمالي، ولو استعمل اسم هذه المنظمة ـ دون

١٦٠ ـ تشومسكي ـ جون ليونز ـ ٣١ ـ النادي الأدبي ـ الرياض.
١٦١ ـ الحكاية والتأويل ـ عبد الفتاح كيليطو ـ دار توبقال.

اختصار ـ لانطرحت أسئلة حول انتساب اليونان وتركيا إليها، ... والاسم المختصر للأمم المتحدة UN يغني عن ذكر كلمة «الوحدة» التي قد تكون مثيرة للحماسة»[١٦٢].
فعندما تتحول كلماتك وحروفك وجملك في لغتك إلى مجرد رموز واختصارات لا علاقة حميمة بينك وبينها، تصبح أقل حساسية لدلالاتها، وهو ما أعتقد بوجوده عند العرب والمسلمين حين يتعاملون مع الفصحى من جهة ومن جهة أخرى حين يواجههم النص القرآني والحديث المحمدي. فعندما تمر عليهم عبارة «أقيموا الصلاة وآتو الزكاة» فلن يقع في أذهانهم سوى المعاني الاصطلاحية للكلمات: الصلاة: السجود والركوع وما بينهما من قيام وكلام. وكذلك الزكاة: قسط المال الذي يقتطع كل عام من أموال من وجبت عليه الزكاة. وعلى ذلك كنا ندرس الشريعة: الصلاة لغةً: الدعاء واصطلاحاً: ما ورد عن النبي من الحركات والأقوال والأفعال في الأوقات المحددة. ومن هنا ينشأ الخلل وتتباعد العلاقة مع مفاهيم الدين التي هي أساساً «لغة» وليست بأي شكل من الأشكال «اصطلاحاً»!! من من المسلمين الآن يعرف أن الزكاة تعني التطهير والتنظيف والتنقية؟! إن هذا الاغتراب عن لغة النبي يُفسِّر الاغتراب عن عالمه الروحي والاجتماعي الذي أسسّ له طيلة الأعوام الثلاثة والعشرون التي دعا خلالها إلى الإسلام.

اللُّغة تفكّر بذاتها

«اللّغة أداة للتخييل، واللغة تفكّر بذاتها، أما التخييل فهو طريقة الذهن الإنساني نفسها، فالتخييل يستخدم كل المناهج، بينما يرتدّ الإنسان إلى الإرادة» (مالارميه ١٦٣)

«أن يصنع الأدب، وخاصةً اليوم، لغةً من شروط اللُّغة نفسها؟»[١٦٤] حين طرح رولان بارت سؤاله هذا وقرأته لم أفكّر أنّه يمكن أن يستعمل كمفتاح عمل من نوع خاص صالح للاستعمال على اللُّغة القديمة ـ وحين أديره الآن كي أستخلص تلك الـ«لغة الخاصّة» من كلام محمد. إنما أشعر أنني أوظّف أدوات الحداثة في معالجة نصٍّ حديث على الدوام (القرآن ـ الحديث)، على أن منطق العقل العربي ـ الإسلامي الأعم طيلة القرون الماضية ظلّ مصرّاً على تنزيه تلك النصوص عن الدراسة بأي شكلٍ كان. وليس أدل على ذلك من فصلٍ صغير ضمنه جورج طرابيشي آخر كتبه (وحدة العقل العربي الإسلامي)[١٦٥] في حديثه عن (النحو في خدمة الدين) الذي يستشهد فيه بكتب ابن مضاء «الرد على النحاة» المبني على حديث غريب من نوعه مسند إلى الرسول: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب، فقد أخطأ»!!، ويظهر من النص الذي تركه لنا ابن مضاء موقفه المتشدد من «النحو» ويعتبره «محض علم خادم للعلوم الدينية، السمعيّة منها والنظرية» وأن من ينشغل عن هذه العلوم الدينية «التي هي الجُنَّة والهادية إلى الجنَّة». ويقتصر على «المعارف التي لا تدعو إلى جنةٍ ولا تزجر عن نار، كاللغات والأشعار ودقائق علل النحو ومسلّيات الأخبار» فقد «أساء الاختيار واستحب العمى على الإبصار».
ويعتبر طرابيشي أن هدف كتابٍ كهذا إنما لا يقتصر على تجريد النحو من «زوائده» كما يدّعي ابن مضاء ولكن أيضاً وأولاً وقبل كل شيء: تهبيط عمارة المنطق النحوي بالذات بقدر ما قامت، في تاريخ النحو العربي، على أساس المسعى إلى تجاوز المعطى اللفظي الخام للوصول إلى البنية التحتية للغة وشبكة علاقاتها الوظيفية[١٦٦].
وقد كان لعلماء من طراز ابن مضاء نظريات «مذهلة» ربما تكون هي المسؤولة عن التطوير غير الطبيعي الذي طرأ على «لغة محمد»! فاستناداً إلى ما يسوقه طرابيشي حول (نظرية العامل) التي قام عليها علم النحو بدءاً من كتاب سيبويه صاحب (الكتاب) الذي أورده مؤرخ النحو الكبير شوقي ضيف

---

١٦٢ ـ الإنسان ذو البعد الواحد ت هربرت ماركوز ـ ترجمة جورج طرابيشي دار الآداب ـ ١٩٨٨ ـ الطبعة الثالثة.
١٦٣ ـ حسب الدكتور منذر عياشي في هامش الصفحة ٣٤ من كتاب مدخل للتحليل البنيوي للقصص ـ ترجمة عياشي ـ رولان بارت صادر عن مركز الإنماء الحضاري ـ ١٩٩٣.
١٦٤ ـ المصدر السابق.
١٦٥ ـ نقد نقد العقل العربي ـ وحدة العقل العربي الإسلامي ـ جورج طرابيشي دار الساقي ـ لندن ـ بيروت ـ ٢٠٠٢.
١٦٦ ـ المصدر السابق.

في (المدارس النحويّة)[١٦٧] ووضعه بأنه «تتداخل نظرية العوامل في كل أبوابه وفصوله النحوية، بل لا نغلوا إذا قلنا إنها دائماً الأساس الذي يبني عليه حديثه في مباحث النحو».
وتجيء أهمية نظرية العوامل من كون العربية لُغةً مُعْرَبَة و«العامل هو الذي يحدث الإعراب وعلاماته من الرفع والنصب والجر والسكون»[١٦٨]
وابن مضاء في كتابه المذكور إنما يطالب بنزع القدرة الذاتية عن «العامل» في اللغة! ويطالب أيضاً بإخضاع النحو للمنطق الإلهي.
وله موقف حاد جدّاً من (الفاعل) فمعروف أن الفاعل مرفوعٌ بعامله (الفعل) وناصب لمعموله (المفعول به). فابن مضاء كان يرفض هذه العلاقات رفضاً مطلقاً ويقول أن الفعل بإطلاق هو لله وحده! وأن لا فاعل في الوجود يمكن أن يسمّى بهذا الاسم سوى الله! ويتابع «فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا تكون إلا بعاملٍ لفظي، وأن الرفع منها يكون بعامل معنوي، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيدٌ عمراً) أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضَرَبَ.. وأما في مذهب أهل الحق فإن هذه الأصوات هي من فعل الله تعالى»[١٦٩].
وإذا كان هذا المنطق هو الذي قاد حركة تطور اللُّغة ـ وكان الأقوى لقربه من السلطات ـ فإن تعريض النظام اللغوي العربي الواسع إلى كافة أشكال التأثُّر والانهزام أمام اللغات الأخرى كان بالتالي هو آخر الخط لمن يعتقد أن اللّغة قائمة بقدرة الله وأنها انعكاس تامٌّ للعالم اللاهوتي.
ومن سوء الحظ أن علماء الظاهر بالغوا في التعامل مع ظواهر اللفظ كما ينقله الرواة، صحيح أن اللفظ يبقى ثابتاً في «رسمه» في الكتاب ولكن رواته يتغيّر لسانهم بحكم بشريّتهم واختلاطهم وتوارثهم للتغييرات الطفيفة جيلاً بعد جيل.
وحسب تشومسكي فإن القواعد تولد Generate جميع الجمل في اللّغة ولا تميّز بين ما أثبت منها فعلاً وما لم يتم إثباته[١٧٠] أي أن حركة تغيّر اللغة هي حركة دورانية (أو حلزونية) مستمرة ـ ربما تشبه السلسلة الوراثية DNA -RNA والشيفرات التي تنتجها، فيستمر الدوران والتحوّل، وصولاً إلى اللغة الصامتة التي تحدّث عنها إيهاب حسن في شروحات ما بعد الحداثة. والتي أحاول أن أفهم منها أنّ انتهاء اللغة إلى نظام رموز ـ أقل كلفة ذهنية ـ سيقودها بالتأكيد إلى مفردات تقابلها «صور» وتصبح الأبجدية الجديدة خريطة بصريّة مختزلة تكفل التخاطب الإنساني بين الأمم وتُلغي فوارق اللغات.
والدعوة إلى إفقار لغة النبي هي دعوة إلى إفقار ثقافته الإنسانية التي لم ينكر هو فضل ربه عليه في تلّقيها: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[١٧١] صحيح أنّه قال: «نحن أمة أميّة لانحسب ولا نكتب» وصحيح أن القرآن يقول: «وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك» إلاّ أن ذلك كُلّه لا ينفي ثقافة النبي.
وقد ذهب بعض علماء الشيعة والمعتزلة[١٧٢] في ذلك مذهباً بعيداً حين أنكروا تأويل لفظ «الأمّي» القرآن على أنه الجاهل بالقراءة والكتابة. ومنهم الشيخ المفيد (توفي عام ٤١٣ هـ) الذي قال في كتابه «أوائل المقالات» «إن النبي بعد أن خصّه الله بنبوّته كان كاملاً يُحسن الكتابة»[١٧٣].
وقد جاء في الصحيحين (البخاري ـ مسلم) عن ابن عباس أنه قال: «لما حضر النبي [أي حضرته الوفاة] قال ـ وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم: «هلمَّ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» فقال عمر: إن النبي غَلَبَه الوجع، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله. واختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول كما قال عمر. فلما كثر اللغط

١٦٧ ـ المدارس النحوية: شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦.
١٦٨ ـ المصدر السابق.
١٦٩ ـ وحدة العقل العربي الإسلامي.
١٧٠ ـ تشومسكي ـ جون ليونز.
١٧١ ـ الصحيحان: البخاري ـ مسلم.
١٧٢ ـ وحدة العقل العربي الإسلامي.
١٧٣ ـ هو الشيخ عبد الله بن محمد النعمان العكبري البغدادي الملقب بالمفيد: «أوائل المقالات في المذاهب والمختارات» ويليه «شرح عقائد الصدوق».قدّم له وعلق عليه الشيخ فضل الله الشهير بشيخ الإسلام الزنجاني منشورات مكتبة الداوري ـ قم ١٣٧٠ هـ (هامش من وحدة العقل).

والاختلاف عند النبي قال: «قوموا عنّي» فكان ابن عباس يقول: إن الرزيّة ما حال بين رسول الله أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم».
ورود هذا الخبر في الصحيحين واستعمال النبي لكلمة «أكتب» وكذلك ابن عباس «يكتب» لهو دليلٌ صريح على معرفة النبي بالكتابة إلاّ إذا تأوّل الخبر على أن النبي كان يريد أن يحضروا إليه كاتبه كي يكتب هو والنبي يملي عليه. وهذا لا معنى له لأن غالبية الحاضرين كانوا يعرفون القراءة والكتابة وعلى رأسهم الذي منعهم من ذلك وهو عمر بن الخطاب، وبالتأكيد كان عليٌّ حاضراً، وكبار الصحابة، على كل حال ليس هذا ما أبحث عنه الآن.
بالعودة إلى رولان بارت.. الذي يقول: «أمام تعددية وجهات النظر التي نستطيع أن نتكلّم عنها (تاريخية، نفسية، اجتماعية، اتنولوجية، جمالية) يجد المحلل نفسه رويداً رويداً في الوضع الذي كان فيه دوسوسير أمام الخليط اللغوي الشاذ. فيعمل باحثاً لكي ينتزع من الفوضى الظاهرة للرسائل، مبدأ للتصنيف، وملجأ للوصف»[١٧٤] هل يمكن أن يكون هذا ما حصل في ذهن محمد وهو يستعرض البث الحاد والصاخب للمجموع اللغوي «السامي» وفرعه العربي المتعدد في جزيرة العرب؟! وعلى أساس هذا الخليط تمكن من اشتقاق لغته التي بها نطق؟! ومن هنا بدأت ترتسم الصورة الأزلية للغة محمد التي لم يستطع مقاومة الشعور بها أي دارس لها، لأن الرمزية اللغوية التي تجمّعت لدى محمد بإمكانها أن تخلخل الشعور بالزمن أثناء القراءة لأنه ـ الزمن ـ في نظام إشاري (سيميائي) لا ينتهي إلى الخطاب بل معنى الكلمة، ولكن إلى المرجع، واللغة كنظام لا تعرف إلا زمناً إشارياً. أما الزمن «الحقيقي» فوهمٌ مرجعيّ. ولكنه «واقعي» أيضاً، ولكننا أمام نصٍ يقول عنه صاحبه أنه آتٍ من السماء.
إن السّحر الذي تمتّعت به لغة محمد، لم يكن أقل من نموذج فريد في التاريخ بإمكانه أن يبدأ معك قصة الإسراء والمعراج والصعود إلى السموات والسدرة والمنتهي والجحيم والجنة وبيت المقدس والأنبياء والبراق... وأن يغامر بإيمان القلّة القليلة التي أسلمت وصدّقته في مكة. حيث يختم كلامه بـ «وأفقت من نومي وفراشي ما يزال دافئاً تحتي»!! وكأنه ينسف القصة، إذاً لماذا رواها؟!
صحيح أن هناك مذهباً في التفكير يقول إن الإسراء بالنبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان إسراءً بروحه فقط دون جسده، ولكن محمداً نفسه يذكر أنه مرّ على قافلة وشرب من إناء على الطريق لغلام لهم، وأنهم فقدوا البعير الفلاني، وأن الصخرة لحقت به في بيت المقدس حين صعد على ظهر البراق.
كل ذلك ويعود لختم روايته بأنه حين نهض من مكانه بجوار الكعبة مع جبريل اصطدمت قدمه بكأس ماء مملوءة إلى نصفها فاندلقت.وأنه ذهب في رحلته وعاد ولم ينسكب بعد كاملُ الماء الذي كان في الكأس!!.
إذاً ما هو شكل الزمن المحمدّي؟! وكيف كانت تلك اللغّة التي تبني ذاتها بذاتها لتنقضّ على أجزائها كل حين ولتعود وتبني في مواضع أخرى؟
ألا يشبه ذلك قول محمد عن نفسه ـ كما يروي الناس ـ أنه «أمّي» لا يقرأ ولا يكتب؟! عموماً هذا الأمر ليس مهماً على الإطلاق ومن قال به وتمسّك بفكرة أن النبي لم يكن «مثقفاً» كدليل على أنه لم يخترع القرآن والدين، فإنما يقدّم دليلاً سخيفاً وسطحياً على قدرة الله لأن الإله الذي بعث محمداً ورقى به إلى السموات وشقّ له القمر وقدّم له العديد من المعجزات، لن يكون صعباً عليه أن يعلّم محمداً القراءة والكتابة بلحظة واحدة ـ خاصة عندما تكون هذه اللحظة هي تلك التي نطق بها جبريل لأول مرة أمام محمد بكلمة الله الأولى «أقرأ» ـ[١٧٥] وحدوث أمر كهذا لا ينفي نبّوة الرسول ولا يقلل من شأن الإعجاز القرآني ولا ينسبه إلى البشر. وعلينا أن ننتبه إلى جواب النبي لجبريل في المرات الثلاث التي أمره فيها بالقراءة «ما أقرأ» ثم «ماذا أقرأ»؟!
وقد أوردت هذه الحادثة في أول الكتاب كي يتسنى لمن أراد قراءتها بثقة وقد جاءت على لسان محمد ذاته.

١٧٤ ـ مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص.
١٧٥ ـ العلق ـ ١.

خاتمة

«أوتيتُ جوامع الكَلِمْ»[١٧٦]

محمد

يكررّ تشومسكي في مآخذه على الفلسفة السلوكية أن ميزة الإبداع والتجديد هي أهم خصائص اللغة، فالطفل عندما يبلغ الخامسة أو السادسة يستطيع أن يؤلف وأن يفهم عدداً غير محدود من الجمل التي لم يتعرّض لها من قبل، و(نظرية التعلّم) السلوكية ـ مهما أصابت من النجاح في تفسير الطريقة التي تُبنى بموجبها بعض شبكات (العادات) Habits والتداعي الفكري Associations من خلال النماذج السلوكية عند الإنسان والحيوان، إنما هي عاجزة عن تفسير ميزة الإبداع، وهي عنصر من عناصر السلوك الإنساني التي تكون على أشدّها في ظاهرة اللغة.
وقد حاولت في الصفحات الماضية أن أفكّر على الورق في لغة نبي الإسلام «محمد» على اعتبارها ظاهرة إبداعية في جزيرة العرب وسط أعمدة الشعر الموزون وسجع الكهان وبعض الترجمات لصفحات قليلة من التوراة والأناجيل. وكما قلت فإن تسليط الضوء على اللغة التي كان يتكلّم بها محمد، لا يقلّل من أهمية علاقته مع الله، ولكنه بحثٌ في (تاريخ اللُّغة) استندتُ فيه إلى عدد كبير من الكتب التي أثق بجهود مؤلفيها سواءً أكانت من قديم ما كُتب في التاريخ العربي وعلوم القرآن والحديث أو الجديد منها الذي يناقش اللُّغة بمفهومها المجرّد.

محمد الذي يقول: «أوتيت جوامع الكلم» لم يكن أقل اهتماماً ولا احتراماً لدراسة اللغات في جزيرة العرب، منا في هذه الأيام، وهو الذي خاطب الناس بلغاتها وحاورهم وأجابهم كما يفهمون وكتب إليهم برسائله على ألسنتهم.

وهذا البحث فوق ذلك إنما هو محاولة لمعرفة المزيد من (عالم محمّد) الذي يبدو لي الآن بعيداً جداً رغم قرب قرونه. ورغبة في التعرّف على ذهن هذا الرجل، باعتباره أحد أهم المتعاملين مع اللغة في التاريخ إن لم يكن أهمهم على الإطلاق.

---

١٧٦ ـ البخاري ـ مسلم.